في جبين البحر

اســـــم العمـــــــل	في جبين البحر
النـــــــــــــــوع	رواية
تـــــــــــــأليف	نور نور الدين
تصــــميم الغـــلاف	احمد الملواني
إخــــراج داخلـــــي	عبدالقادر فايز الهندي
الطباعـــــــــــــة	اتيليه تاتش – المحروسة
الناشـــــــــــــر	الدار للنشر والتوزيع
المـــــدير العــــام	محمد صلاح مراد
تليفـــــــــــــون	٠١١٢٥٨٠٠٤٦٧
البريـــد الإلكترونـــي	eddar_press@yahoo.com
فــــــيس بـــــــوك	www.facebook.com/eldarpublish
رقــــــم الإيـــــداع	٢٠١٦/٢١٠٤
التـــــرقيم الـــــدولي	I.S.B.N.: 978-977-702-107-4

في جبين البحر

روايــة

نور نور الدين

الدار
للنشـــر والتوزيـــع

٢٠١٦

هو في جبين البحر والبحر في جبينه، صفحة ماء صافية

يلتقي ألق شعاع الشمس فيها بلؤلؤها

إهداء

إلى كل يد:

تغرس نبتة، تمسح دمعة، تضمد جرحاً،

تربتُ على قلب مكلوم

إلى كل من يؤرقه هموم البشر،

إلى كل من يعنيه حرية وكرامة الإنسان

إلى كل الداعين للسلام

الفصل الأول

كان قد مر على فراقهما إثنى عشر شهراً لم يلتقيا.. عند مروره أمام منزلها، مثلما يفعل كل يوم منذ الانفصال، وقعت عيناه عليها تعبر الطريق.. تسارعت ضربات قلبه، حتى بدت ملابسه ترتجف فوق بدنه، مر خلفها جذب حقيبتها.. كانت تحوي صورة له (مخزوقة بسكين)، التفتت، رأته أمامها شبحاً، وقد غاب شيء ما، لا تعرف ما هو بالتحديد..

كانت تمنِّي نفسها رؤيته ولكن عندما رأته طفا شيء آخر، الطريق التي كانت تسير فيه كان تيهاً، الخطوة فيه ثقيلة بطيئة كالسائرين فوق الجذذ، كانت وقتها يطن رأسها، هناك شحيح من ضوء ومن بصر، بالكاد ترى كل ما حولها أشباحا.

وفي ذهول امتدت كفها المتجمدة ككف مبتورة، كان ذلك فقط لأجل كفه الممدودة لها، بدا الطريق أمامهما سرادق عزاء في كل ما مر، هناك دموع تلوح من بعيد محظور عليها ألا تسقط، تحمل له الاشتياق والضغينة معاً، يحمل هو حبا قديما تلوث بالذنب، تحدِّق فيه، تقرأه من جديد. ربما تلحظ ما خفي عنها في تعارفهما الأول، تملأ رئتيها بهواءٍ طاف حوله محملاً برائحة تنضح منه،كالذئب لدم الفريسة، وتختلط فيها شهوة الافتراس والذوبان في رحيقه.. يسود صمت في سير طويل يلفهما، فلم

يخترق الضجيج حولهما صوبة الصمت الصاخب والصارخ بالكثير، ويستمر السير من محرم بك حتى الاستاد ومنه إلى المسرح الروماني.

توقفا أمام محلاً لبيع الخروب كل منهما في يده كوب من العصير، كالنزف تتجاذب أعينهما الحديث، يحمل كلاهما للآخر حبا عظيما وجرحا أعظم، ورغم أن الجراح تنزف؛ لا يزال للحب أوار لم يخمد بعد..

يكسر الصمت قائلاً:

- وحشتيني ببا!!

تتملى وجهه، تتضارب الأفكار والمشاعر، كانت هناك أشواق وصارت الآن شقاقا، كل ما حدث تواجد أمامها كما لم يمر عليه أي وقت، وكما لو سقطت رقماً أخر مجهولاً مضافاً لأهل الكهف. كانت قبل تلك الأحداث هي والعشق يطوقانه، وفي سكرة ذلك العشق سرت مديته الماضية بقطع الوريدين، فغابت الروح منذ ذلك اليوم، مسروقة الأنفاس، والآن قامت كما اليوم الثالث للمسيح، يرف الطائر المذبوح في صدرها، يلفظ أنفاسه الأخيرة من جديد، فكل لقاء له وكل وداع بعث وموت جديد.

يسألها مازحاً

- صائمة هذا العام؟

تطل برأسها من صوبة الصمت

- بل مثل كل عام... قل لي إلى أين كنت ذاهب؟

- دعوة إفطار (بالشيراتون) ثم مررت من هنا عسى أن تقع عيني عليك أو حتى، على أحد من جيرانك.
- وحشك جيرانك القدامى؟
- نعم.. وحشني كل شيء عندك

برق الدمع بعينيها، تغلبت عليه، سألته

- لماذا لم تدخل اعتكافك بعد؟

رد بتلقائية شديدة ودون تفكير

- من ناحية الاعتكاف، فأنا معتكف...

ردت سريعاً في تعجب واستفسار

- معتكف؟!

انتبه لما قاله وتعليقها عليه، وقد راحت هي في نوبة من الضحك الساخر الممتزج بالمرارة، فوجد نفسه يندفع ضاحكاً حتى البكاء، لقد بات الأمر جلياً لكليهما دون تجمل ودون الأقنعة، وقد كف عن الدفاع أمامها حتى وإن سبته أو لطمته، لينظر إليها في صمت وفقط دون أن يبدي أي تذمر فتقول فيه ما تشاء وتصنع به ما تشاء. حاول خلال هذا اللقاء أن يطفئ نيران لا تزال ترعى، تراكم فوقها الكثير من رماد المحرقة.

اتفقا على لقاءٍ آخر، ليفطرا سوياً.

منذ الصباح منهمكة في مطبخها تعد له الإفطار، ومشروبه الرمضاني المفضل الخروب والتمر هندي وكأسا كبيراً من الخشاف والمكسرات، كما لم

ينفصلا قط، بل هي في انتظاره يشرب كأساً يستسيغه، وإن صار ملؤه الحقد والحب.

كان سناه يوماً يملأ هذا البيت، وصدى صوته وأنفاسه كانت تعيد لكل شيء اتزانه، اليوم يأتي ليروي اشتياق وعطش المكان حتى الأثاث والجدران. لم تكد تحتفي بقدومه حتى تقع في هوة الذكرى القريبة، فتراودها نفسها بأن تدس له ما يقتله، جاهدة تخرج من تلك الفكرة، ولكن عندما شرعت بإعداد الطعام قفز إلى ذهنها جنينها السقط، فقسا قلبها وغابت حكمتها، وسوس إليها شيطانها..

- ولكنكِ أصدرت حكماً بإعدامه، كما حكم هو عليكِ بالموت، أسكنكِ بيده القبر، بات كل ما حولك ميتاً، لقد أتت الفرصة ليرتاح القتيل، تنم عينه المفتوحة والمسهدة بالثأر، لم يخرج شبحه بعد اليوم، ولن تقول له الموتى لا ترفع صوتك، ثأرك كالقلادة معلق بعنق قاتلك. فقط بضع دقائق ويكون هنا والطعنة لم تخطئ طريقها لقلبه، فالجراح لا تشفى إلا بالجراحة ولم ينم القتيل إلا ومعه قاتله.

ظلت تتأرجح بين الإقدام والإحجام، يدفعها وسواسها، ثم تخور قواها. طرق الباب، استقبلته بطريقة رسمية، جلس في مقعده المعتاد كما لم يغب عنه حولاً كاملاً، وعندما بكى لفراقها اعترف بذنبه وجرمه، هي أيضا بكت بحرقة، خار إصرار خيالها على قتله، ولكن ظل أوارها يعلو، احتوى

(الفوتيه) بدنه، ملأت جوف عينيه صورتها، وفراغ سمعه صوتها، تحيطها أهدابه كالمريدين في حلقة ذكر تطوف بها، فكانت أنفه ببابها (زنهار) حتى في الغياب.

صرخ المعتوه القابع في الشارع أمام البيت "**نجينا يا رب**"

جلست في المقعد المقابل له بغرفة الاستقبال

- أرسلت لك ولإخوانك رسالة مدح
- مدح أم ذم... أنت محقة في كل شيء ولكن للأسف لم تصلني، ماذا كتبتِ؟

لم تجب، بل فتحت ألبوم صوره وسألته:

- لا تزال صورك كلها عندي ألم تأخذها؟ ألا تريدها؟

يشاهد الصور ويحدثها في كل شيء دون أن يرد على سؤالها

- هذه الصورة كانت في بطولة الجمهورية للشركات، وهذه كان عمري وقتها إثنى عشر عاما أما تلك كنت في الثالثة والعشرين

يتذكر (فيديو) رحلة العين (السخنة) يدير(الكمبيوتر) يشاهد ويتذكر رحلة الفيوم ورحلة الساحل الشمالي وأيام المعمورة.. ظل يشاهد ويضحك ويعلق حتى سقط وجهه بين كفيه وأجهش بالبكاء

- قولي لي يا أغلى الناس، هل تغفري لي يوماً؟
- لا.. لم أستطع ذلك، حتى أُمدد فوق طاولة غسلي، ولكني مازلت أحبك، ولو طاوعني قلبي مزقت قلبك

- لو فعلت بي ذلك تغفري لي؟.. افعليه أن كان يرضيكِ.

كان يملؤه اليقين بأنها لن تفعلها، نسي أن ربما تفعلها نفسها الثكلى وجرحها النازف فوق ثغره الباسم عندما لاحت انتصاراته فوق جثمانها أو يفعلها الشيطان الذي يسكنها وينفخ في نارها كل ليلة.

تجيب على سؤاله الذي بدا مدعماً بحبها:

- بكل الأسف لن تهدأ أبداً بل أزداد ألماً، هذه هي الحقيقة كلما أردت إيذاءك تأذيت أنا

يصرخ المعتوه: "**نجينا يا رب**"

حدَّق في وجهها

- ذابل وجهك كثيراً، أين منه ما كان يملأ الحلكة ضياء؟

اقترب موعد الإفطار، همت لإعداد المائدة، صبت المشروب، نفخ في أذنيها وسواسها أن تضع له السم

- هذا ما يستحقه، لقد ترك لكِ الكوابيس والمقصلة المنصوبة كل ليلة، لقد قدمك وجبة سائغة للأشباح.
- نعم.. كان يعلم أني بدونه سأموت في الليلة مرات ومرات، أذكر أني قصصت له ذلك مرة، كنت أذوب في خلاياي رعباً مما أقص. هي تشبهني تماماً كأنها أنا بل كأني أنظر في المرآة ولكنها مبتورة الساقين، فتبدو شديدة القصر، تغرق في سيرها كأنما تخوض في الماء، كان سيراً أشبه بالتجديف، وجهها جميل ومخيف وهو

وجهي، غير أن وجهها صاف شديد البياض كضوء قمر أو قطعة من برد، ترفل في جلباباً كبير ويرفل خلفها على الأرض، تخوض في غرفتي وحمام بيتي بتلك الخطى الغارقة، لا تفعل شيئًا سوى طلتها الغامضة والمخيفة نحوي، كما لو كانت تريد الانتقام مني لعجزها.

مرت دقائق وهي ترتجف، ربما غاب وعيها بعض الوقت رغم أنها لم تبدو كذلك، ضرب مدفع الإفطار.. احتسى المشروب وبضعة لقيمات، شعر بآلام تمزقه، سقط متلوياً فوق الأريكة، حاول أن يتماسك، تشككت في ذهول، أدسته له دون أن تدرى؟ هل قتلته؟ أعطته بعض المسكنات، تصبب عرقاً، تزيل نضح جبينه، تعوي روحها لأجل توأمها، انصرف هو بآلامه، لتبقى هي في حيرتها، هل الآن أعادته إليها؟ شفي جرحها؟ خبت نارها الآن أم زادها سعيرا؟

لا.. لم تحاول قتله، فقط كانت تود أن تملأ قارورة عطرها من نضح عبيره، تعطر به أيامها في الغياب، تصلب جثمانه مزاراً لها وحدها، تضعه في دولاب (فضيتها) جوار رفات جنينها لتجمع كل أحبتها بتلك الخزانة وتغلق بابها عليها وكفى.

الفصل الثاني

دق هاتفه، رد كعادته بحفاوة وترحاب شديدين.. صمت مذهولاً لبرهة، ثم قال:

- متى حدث؟ غير معقول، كنت سأزورها اليوم.

أنهى مكالمته، دارت رأسه، جف حلقه، كان وقتها لم يمض على زواجه من "ببا" سوى بضعة أسابيع وكانا في دعوة غداء عند أمه، سألته "ببا" عما حدث

- توفيت زميلة في العمل

احتذى حذاءه سريعاً، وأمه من خلفه تسأله:

- من يا "عسَّاف"؟

- نائلة يا أمي

فتح الباب مندفعاً للخارج، بينما أمه تضرب صدرها بيدها

- خذني معك يا عبد الله

نظرت أمه إلى "ببا" في جزع لهول الخبر وتوجه كلامها له

- والله أحبها لحبها لك

لم يلتفت لها، بل أنهى درجات السلم سريعاً. لم يكن يعرف أن حزن نائلة عليه سيقتلها ترحل في هدوء دون وداع، رغم سبابها ووعيدها له بأنها

ستجعلها زيجة سوداء.. إلا أنها لم تفعل شيئاً، في صمت رحلت، كانت تريد أن تراه، لكنه لم يعبأ بطلبها، ظنها تريد أفساد زواجه.

حين طلبت نائلة رؤيته، كانت ترقد بين مخالب الموت، بالمستشفى العسكري، في فراش مزُركش بكراتٍ من الأزرق والبنفسج، تتساقط من أطرافه الحياة، تفل فوقه الدقائق والسويعات، فإذا سقطت دقيقة همت خلفها الأخرى، لينتهي الأمر سريعاً، ولكنه لم يلبى طلبها، واليوم يشيعها لمثواها الأخير، كان من قبل يؤم المصلين في أي جنازة ثم يقف فوق القبر يدعو ويخطب، واليوم وقف بعيداً يتابع مراسم دفنها حزيناً، يخشى أن تفضحه عيناه، يشعر بأنهم قد يعرفون ما كان بينهما بمجرد النظر فيهما، تلوح له صورتها تلومه، كلما دعاه أحدٌ أن يتقدم الجنازة ويتولى الخطبة والدعاء، تأبى رجلاه، يقف على امتداد شقيق نائلة رجل الأعمال المشهور الذي تعرف عليه من خلالها حيث دعته ذات مرة ليحضر حفلاً في فيلته، بأحد الأحياء الراقية بالإسكندرية، تحيطها من الداخل فرندة كبيرة تطل على الحديقة، والتي وقف بها معظم الوقت هناك، ثم اقترب من باب الخروج ببطء، فمنذ رحب به صاحب البيت وقد انشغل بعد ذلك بضيوفه، فانصرف ولم يشعر به أحد، كان حاضره نجوم المجتمع من فنانين ورجال أعمال وسياسة، ثم صار يتردد عليهم لتعليمهم دينهم، يحكي لهم كثيراً عن أهل النار وعذاب القبر، سأله أحدهم:

- لم يذكر القرآن شيئاً عن عذاب القبر يا أستاذ "عسَّاف"

لم يكن تفاجئه تلك الأسئلة، فكانت ردوده جاهزة وشافية

- ما لم يأت في القرآن فقد وضحته السُنة.

ظل يتردد عليهم لقراءة بعض السور والآيات على ابنتهم التي أصابها مرض عضال، فصارت بينهم صداقة وطيدة. يجالسهم وهم يحتسون الخمر، يتخذ دائما من أول مقعد في الصالون مجلساً، يمد جذعه ويرفع هامته، يضع ذراعيه ممدودتين فوق فخذيه، وقد باعد بين ساقيه في استقامة جذعه كجلسة العسكريين، يملؤه الاعتزاز والكبرياء يخفض عينيه عن النظر للنساء، يسألونه عن الحرام والحلال والمكروه والمستحب، ثم تطرق الحديث عن السؤال عن حكم الخمر:

- لماذا الخمر حرام يا أستاذ؟

- لأنها تخمر العقل الذي يميز الإنسان عن غيره من المخلوقات

قال أحدهم:

- ولكننا لا نثمل.. فقط كأس أو اثنين على الأكثر

- يقول الحديث الشريف "ما كان كثيره مسكر فقليله حرام"، وقد حرمت الخمر بنص صريح في القرآن لا لبس فيه.

ظلت علاقته طيبة بهم حتى وفاة نائلة، ينظر إليه شقيقها، بدا يحثه أن يتقدم الجنازة يدعو لها، فعرفت زوجته ما يريده، فاقتربت من "عسَّاف" وهي تحمل كثيراً من الحزن تهمس له:

- تقدم يا "عسَّاف" ألا تؤبن نائلة، تدعو لها، ألم تكن صديق؟ أتقف مع الجميع وتدعو له إلا هي؟ أقليلة الحظ حتى معك؟ ألم يكن بينكم عشرة عمر وعيش وملح.. تقدم يا "عسَّاف"، وادع لها، فكنت أكثر من أخ لنا جميعاً، ألا تواسينا فجيعتنا في فراقها؟

أصابه الخرس لا ينطق ولا ينظر إليها، يتفطر قلبه وحسب، يرى الجميع قد التف حول زوج الفقيدة يواسيه ويشد أزره، كان يريد أن تكون المواساة له هو، والعزاء له وحده، فهي رفيقة درب بطول عمرهما، وربما حرقته أشد وفقده أكبر، بدا كما لو أن نائلة تعمدت لفظه خارج ذلك المشهد، فهو الآن لا يعني لها شيئاً، وربما كانت تود أن تقول له ذلك عندما أرادت رؤيته، لولا أنه لم يأبه لطلبها، ولم يحضر ولم يمهلها قدرها لتعلنها له.

كان يريد أن يقول عنها الكثير، ولا يطيعه لسانه.

- فماذا يقول، أنها زميلته، صديقته، رفيقة العمر، وما كان بينهما كيف يقال ولمن، لا الكلمات تحمل ما تلج به نفسه ولا آذان تسمع أو قلوب تفهم.

كان السير ثقيلاً بطيئاً بثقل الأحزان، يحيط بالجثمان أقاربها وزملاؤها وجيرانها، بينما ظل هو متنحيا بعيداً، يتابع ما يحدث، يشعر أن نائلة تصوب بصرها إليه تمنعه، تحذره من الاقتراب، كما لو كانت تقول له:

- يجب أن تظل بعيداً كما أرادت أن تكون بعيداً.

أنظار الزملاء تتابع ردود أفعال "عسَّاف"، يروّن خيانته لصداقة ورفقة سنوات عمر، بتنحيه عن تأبينها بتلك الصورة التي لم يعتادوها منه، بينما كان لا يكفيه البكاء عليها والانتحاب ولكن لم يشعر به أحد، ظل دمعه محتقناً متجمداً بعينيه شديدة الاحمرار، حتى صوته توارى حبيس حنجرته.

تسرعت نائلة في قرار الرحيل ولم تمهله، ربما كان سيعود إليها يوماً، من أين أيقنت أن عودته مستحيلة؟ فكم خاصمها وهجرها ثم عاد، وكم عرف أخريات ثم عاد، فكيف أيقنت أنه لن يعود إليها هذه المرة؟ ربما هي من أرادت إنهاء تلك العلاقة، تشعر بفداحة ذنبها بعشقها له، كانت تود قطعها. يزداد وجهه زرقة، يدعو لها دون تلفظ

- اللهم وسع مدخلها، اللهم نقها من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس.

ذكريات شتى تمر أمامه، ماذا كان يريد من نائلة؟ لم يطعها في انفصال كليهما عن زوجه ليتزوجا، وهو الذي لم يكف عن مغامراته النسائية، فماذا يفعل بنفسه التي تأباه؟ ليس بوسعه ولا بمقدوره أن يسلم بهذا الاحتكار، برغم كل ما كان بينهما لا يستطيع ذلك، فعشقه لهن عشق للحياة نفسها، ولا يتصور بيت دون امرأة ولا أي مكان أو طريق لا يملأه عبقهن، فهن أصل الحياة ومنبعها، يمنحونه إياها كما يمنحن كل شيء جمالاً، يقدسهن، لولا ما بث له بأنه الأعلى وأنهن الأدنى والمخلوق الثاني والأقل مرتبة؛ فكان دائم دحر شعوره بتقديسهن، ليكون ذكراً وسط الذكور، بل هن الناقصات

أما الكمال له، متسع جبينه باتساع البحر، يتدفق صدره شلالاً، تعانق عينيه الزهور والنساء والوجود، يطوف محلقاً في خفة الفراشات رغم ضخامته، يعشق كل ما هو ممتع وإن تمخض له بجراح الموت.

تجسدت نائلة أمامه، صارت نفسه التي تحدثه وتلومه، تعنفه.. يدافع عن نفسه، يدفع بشعوره بالذنب تجاهها، يلقى باللوم عليها تارة واضعاً مبرراته ويلوم نفسه تارة أخرى..

في هذا اليوم كان قلبه محملاً بالكثير من المشاعر المتضاربة، ولم يستطع العودة إلى بيته، بل انزوي بغرفة المكتب الخاصة به في مكتب منتصر عضو مجلس الشعب، والذي كان يعمل مديراً لمكتبه، كانت ليلة الجمعة، بعد انصراف الجميع أمسك قلماً، كان قد أهدته له ضمن الكثير من الهدايا المتبادلة، سطر به فوق صفحة من جريدة قديمة يحتفظ بها من سنوات، تحوي صورة للراقصة دينا.. يحتفظ بها في مكتبه، ومخزنه السري، يخط فوقها خطوطاً سريالية، ثم يحيط صدرها العاري بدوائر متداخلة.. ظل يخط فوق ثدييها دون توقف، يريد أن يعد لوحة أخرى، لوحة قبيحة حبيسة في نفسه، ولأنه لا يجيد ذلك، شرع بكتابة كلمات ربما لا تشي إلا بإيثار نفسه على كل شيء.

تريدني لك وحدك دون الأخريات؟ تريدني بلا غزو أو فتوحات؟

بنيت في قلبي محراباً للعشق، تقام فيه الصلوات، دعيني أصول وأجول، تسكرني الآهات، جعلت من صدري حانة، فلا أبحث عن الحانات، ما

ذنبي؟.. وقد خلقت عاشقا للجميلات، تفقدني نون النسوة، توجدني سحر البسمات، أدخل حربي فارساً، أعود مسلم الرايات، فإن مت وكنت طياً ستظل تهب بقلبي الأنواء، وتسقط في بوتقتي نجمات، لم أعتد السكون يوماً ولم تبرح قلبي العشيقات، اغمدي سيفك في صدري تصرخ داخله الحبيبات، تريدني لك وحدك دون الأخريات؟.. تردني بلا غزو ولا فتوحات؟ عابثة أنت، لا جدوى مني، لا جدوى من قلبٍ اعتاد عشق الأميرة والجاريات وإن كنت بين ذراعيك.

عندما انتهى مما كتب كان قد تخفف من حزنه كثيراً فخلع حذاءه، تخفف منه أيضاً، مد ظهره فوق كرسي مكتبه ووضع قدميه فوق آخر، في تلك الليلة بدا للشمس لساناً ممتداً عبر من ثقب بابه المحكم، فابتلعه، ليكون في فضاء لا يرى له نهاية كأنه فراغ الكون، تمدد هناك في سرير معلق في الفراغ تجاوره أسرة، تنام نائلة في أحدهم وزميلتهم هدى تنام في ثالث وسرير رابع لزميل آخر من رفقاء العمر يدعى العفي، وتجمع الرفاق في تلك الأسرة.

الفصل الثالث

– نجينا يا رب، نجينا يا رب

هكذا يصرخ المعتوه الجالس أمام بيتهما من حينٍ إلى آخر، ويظل يرددها إلى أن يخفت صوته تماماً، ثم يعلو بها فجأة أشبه بالنوبة يملأ صوته جوف الليل صدى، مستغرقة "ببا" في نومها، وقد احتواها قوس صدره، وضمها ساعداه، مسندا رأسها بأحدهما، تحتويها تلك الكفين الكبيرتين، يتطلع في وجهها، ينحي عنه شعرها، تلامس أنامله جبهتها؛ فيمتلئ وجهها ضياءً، عندما ذكر لها أن وجهها ملأ ليله نورا، قالت:

– انعكاس ظلك فيه.

علاقة "عسَّاف" بـ "ببا"، كانت متشابكة ملتبسة كثيراً، لم تكن حبه فقط بل هي أمه التي يفخر بأمومتها له، يسعد قلبه بها، وكانت هي أيضا لديها ذلك الشعور تجاهه كان ولدها الذي لم يبلغ الحلم، رغم أنها تصغره ربما قرابة العشر سنوات، فإذا غابت عنه انتظرها أمام البيت بالشارع حتى تعود، يعدو ركضاً ليستقبلها بأول الطريق الرئيسي المفضي إلى البيت، لم يستطع الاصطبار حتى تصعد، يحوطها بالحفاوة والالتفاف حولها، حاملاً ما بيدها من أكياس، ويظل يثب أمامها وجوارها، تطوقها روحه وقلبه وعيناه، تُزف بهم جميعاً، يرقصون لقدومها، يريد حملها ولا تطأ قدماها الأرض، إلا أنه لم يفعلها إلا بعد ولوجهما البيت. إذا قرر يوماً هجرها كان ذلك تعذيباً

لنفسه أولاً بل قتلها، لتظل نفسه تعوي وتصرخ لأجلها فلم يستسلم كثيراً لموته هذا، بل يهرب إليها وسيظل دائماً يهرب إليها، قافزاً من جحيم نفسه ليهجع في ظلالها.

كان يوماً غريباً بالنسبة لهما، ذلك اليوم الذي أتت فيه مكتب الأستاذ منتصر عضو مجلس الشعب الإخواني، الذي كان يعمل "عسَّاف" مديراً لمكتبه، كعمل تطوعي ودعوي، حيث كان يعود من عمله بشركة البترول ليستأنف عملاً أخر يخص جماعته بمكتب منتصر.

كانت "ببا" تعمل بإحدى المنظمات الدولية والتي تقوم برعاية ذوي الإعاقة عموماً والسمعية خاصة، وقد أرسلتها المنظمة إليهم لتنسيق بعض الخدمات، حيث استلم المكتب المصري التابع لتلك المنظمة الشحنة المطلوبة من سماعات الأذن الطبية، وترغب في التنسيق مع مكتب منتصر لاستلامها بناءً على طلبهم فيما سبق، وتقوم "ببا" بمتابعة إيصالها إليهم ومن ثم إلى هؤلاء المعاقين، لتكمل البيانات الفارغة لديها. التقت ب"عسَّاف" هناك.. ظنت أنها رأته من قبل، تداخلت الأفكار وتشوشت الأشياء .

كانا كفين كبيرين ممدودين إليها بالعنب الأحمر، معلقين في الهواء، بدت ممتدة عبر السماء، لا ترى صاحب الكفين، ولكنها توقن أنهما كفا الخليل إبراهيم، أخذت حبة من هذين الكفين، ثم بدا أن صاحبهما هو ذلك الرجل المدعو عبدا لله "عسَّاف" لم تعرف أكانت ترى الخليل إبراهيم

أم هذا الرجل، فكان كفاه شبيهين بتلك، ولا تعرف كيف تواجد داخل منزلها، ولم لم تأخذ سوى حبه واحدة منه.

كان كفا "عسَّاف" مميزتين، فقد تركت رياضة رفع الأثقال والمصارعة التي كان يمارسها من قبل أثراً واضحاً فيهما، فتبدو ضخمة، مفرطحة إلى حد ما، ممتلئة قليلاً، تماماً كهذين الكفين.

لقد شعر كلاهما بألفة تجاه الآخر، كما لو كانت هناك معرفة قديمة جمعتهما من قرون، فربما كانت هناك حياة قبل تلك الحياة قد تلاقيا فيها، فانجذب كلاهما للآخر وتعلق به.

عندما رآها ارتجفت أطرافه، نضحت جبهته ببعض حبيبات العرق التي بدت كاللؤلؤ يزينها، وعيناه العميقتان الثاقبتان صارتا أكثر لمعاناً، ولشدة اضطرابه وحبوره بدا يقفز في رشاقة وخفة، تسري فيه نشوة بدلت رصانته إلى رعونة.

كان مندفعاً إليها، يحاول كبح جماحه، حتى بدا أمره مفضوحاً، فطلب منه جعفر وهو أحد إخوانه أن يقوم هو بالإنابة عنه بعمل اللازم، خاصة وأن ذلك من اختصاصهما معاً، ولأن "عسَّاف" كان سريع البديهة أوكل إليه أعمالاً أخرى ليشغله، وبعد وقت ليس بقليل ثرثرا خلالها معهاً، ثم دعاها لوداعه مساء الثلاثاء، أمام مسجد القائد إبراهيم، حيث أنه سيسافر للاعتكاف بالحرم المكي، ويا حبذا لو طلبت منه ما تريده من هناك ليجلبه لها.

وعندما ذهبت إليه في الموعد المحدد، بدت في أبهى صورة، فكانت أكثر جمالاً وجاذبية بوجهها الخالي من أي زينة، فقط إضاءات أعمدة الإنارة بجوار حديقة الخالدين وكشافات السيارات الخاطفة جعلت من عينيها لؤلؤتين، ولفحة الهواء البارد المنبعث من البحر في فصل الشتاء، جعل بشرتها تبدو ناعمة كالثلج، بيضاء شفافة تُظهر بوضوح حُمرة وجنتيها، تحتمي من تلك التيارات الباردة بوضع شعرها أسفل قلنسوة كبيرة حوت رأسها ويحتويها معطفا كبيرا من الصوف، حاول هو ألَّا يطيل النظر إليها رغم أنها قد ملأت بصره وقلبه، تحدثا في موضوعات شتى دون تعمق في شيء محدد باستثناء موضوعات أخرى، سألها:

- ألا تجدين عملاً أفضل من عملك هذا؟
- وما العيب فيه؟
- الاختلاط.. نعم كل الأعمال بها اختلاط ولكن عملكم هذا مبالغ فيه
- لم ألحظ ذلك
- عندما ذهبت إلى مكتبكم شعرت بذوبان جميع الحواجز والفواصل فيما بين الزملاء (نساء ورجال) وكأنهم جنس واحد
- لا... بل هناك حواجز وفواصل، ولكن ليس للدرجة التي تفصلنا كبشر نحتاج بعضنا بعضاً كأصدقاء وزملاء

- لا أريد إغضابك، ولكن هذا لا يتناسب مع صحيح الدين، رغم سمو ما تقولينه. ولكنه ليس واقعياً فالأفضل أن يستعين الرجال بالرجال والنساء ببنات جنسهم..
- ربما.. ولكن..
- دعك من اختلافنا حول هذه النوعية من العمل ودعيني أسالك سؤالا شخصيا
- تفضل
- لم تفضلين العيش بلا زوج وأنت بهذا البهاء والرقة، أرجو أن تتفهمي كلامي أنا لا أغازلك وإن كنتِ تستحقين الغزل.

ابتسمت، أطرقت قليلاً، ثم قالت:

- ليس هناك سبب محدد، ولكنه النصيب، كنت قد تزوجت سابقاً بابن عمتي، كان زواجا تقليديا، أثمر عن ابن مثل القمر، أخذه معه أبوه اليونان لينال تعليماً أفضل وحياة أكرم، وأنا لم أمانع طالما لصالح ابني، ولا أخفي عليك، حتى لا يضيع حقه أيضا في ميراث أبيه فيما بعد، وتستحوذ زوجة أبيه اليونانية وأبناؤها على كل شيء، كما أن شقيقي أحمد هناك يزوره دائماً.
- أظنك تفتقدينه؟
- نعم ولكن الحياة في مصر صعبة، والمستقبل مقصور على أناس بعينهم

- أكنت تحبين ابن عمتك هذا؟
- كنت لا أعرف عنه الكثير، سافر للعمل في اليونان من وقت طويل حتى صار صاحب مطعم كبير هناك، وعندما عاد لإتمام الزواج وجدته شديد البخل كأبيه الذي عانت معه عمتي سنوات حتى توفى
- يبدو أنك عانيت معه أيضاً.. ولكني أشعر أن الله سيعوضك أفضل منه قريباً إن شاء الله، فمن هذا الذي يترك مثلك؟

ابتسمت دون تعليق نظرت بعيداً، حيث المارة، أكمل هو قائلاً:

- ألا تصدقي؟.. لقد دعت أم سلمة عندما مات زوجها، عملاً بحديث الرسول: "اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها"، وكأن لسان حالها يتساءل ومن أفضل من أبي سلمة؟ فكان رد القدر عليها أن تزوجها خير الأنام صلى الله عيه وسلم.

نبهه أحد المعتمرين أن الحافلة أوشكت على التحرك، صافحها رغم عدم مصافحته للنساء، وبخاصة أمام تلك الجموع، ذاب في لمسة يدها، ود أن يتلاشى في كفيها سحب يده ببطء وتردد، صعد الحافلة، جلس في مقعده مضطرباً، لوّح لها من النافذة، لم يعد يرغب في السفر، ولا مغادرة الإسكندرية، تمنى ألا تنطلق الحافلة، ولكنها انطلقت، ظل فكره عالقاً برصيف الحديقة، يراوده جنونه أن ينزل في الطريق ليعود إليها، لقد خُطف

لبه، منجذباً نحوها خافقاً قلبه إلي حد الاهتزاز والترنح، ثملاً دون خمر؛ فقد اعتاد أن يلبي كل ما ترغبه نفسه تاركاً لها العنان، ويريد اليوم أن يلبي.

لم يمر بعاطفة جامحة كهذه من قبل، عاصفة تجتاحه، ظلت عالقة بشفتيه ابتسامة لها، أسند رأسه للخلف بمسند مقعده، أغلق جفنيه على صورتها، رآها في حُلة جميلة كاشفة شفافة، تناجيه ويناجيها تتمدد جواره، فإذا بأحد المعتمرين يوقظه، ثم طلب منه شاحن هاتفه.

الفصل الرابع

في منتصف التسعينات ضمت الأوقاف مسجد أبي الزهراء الذي تُرك سنوات مرتعاً للجماعة ومركزاً هاماً يستضيفون فيه كبار مشايخهم منذ مطلع الثمانينات، ويبثون منه أفكارهم، ورغم ما أذيع عن دحرهم من قبل الأمن بسبب مقتل الرئيس السادات آنذاك، إلا أن نشاطهم كان على أوجه وتوسعاتهم طالت كل شيء.

صار بين الأمن والجماعة صراع يتنازعان فيه المسجد، وقد صار الشارع ساحة نزال بين كر وفر وضرب بالحجارة الملقاة صوب المسجد في اتجاه الأمن، وقنابل الغاز التي عبئت المنازل المحيطة في اتجاه المعارضين، وقد قبضت الشرطة على بعض القادة البارزين في تلك المنطقة، ولأن المسجد كان قريباً نوعاً ما من عشوائيات منطقة الملَّاحة، تم تأجير أولاد الفقراء بتلك المنطقة والمطرودين خارج كل شيء، ليحارب بهم الأمن؛ فمنهم من تطوع لله ومنهم من أخذ أجراً ، ومنهم من كانت تلك لعبة تروقه، كما قد تجمع بعض النسوة على امتداد شارع مسجد أبي الزهراء، وقفن صوبه وقد ولين أحداقهن شطره، ينساب دمعاً مريرا لانتزاع المسجد، قال لهن الأستاذ (شرف جميل المحيا) وهو يمر بالقرب منهن متعمداً

- إن الله يرسل لنا جنوده ليدافعوا عن بيوته

تحلقت به عيون تلك النسوة وآذانهن، ثم استطرد:

- والله لا تصدقون، ليس هناك أخ واحد تصدى لتلك الطواغيت وإنما جند الله أرسلها لتحمي بيته، صدق عبد المطلب جد رسولنا عندما قال للبيت رب يحميه حتى أرسل ربه على جيش أبرهة وفيلته طيراً أبابيل.

قالت إحداهن:

- يا شيخ شرف نريد أن نعرف ما رأي الشيخ جلال فيما نحن فيه.
- الشيخ جلال لم يترك مناسبة إلا ووجهكم ودعمكم برأيه، وعندما تزول الغمة سندعوه في زيارة لنا.

ولقد كان للشيخ جلال، وهو أحد مشايخهم الكبار، منذ منتصف الثمانينات حتى صار من رواد الفضائيات في الألفية الثانية، خطبة عصماء بمسجد أبي الزهراء، على خلفية اغتصاب فتاة المعادي حين ذاك وما تلاها من أحداث مشابهة، فصار الشيخ جلال لاعناً وطاعناً لا لشيء ولكن فقط لغيرته على دين الله.

- إن الفتاة أيها الإخوة هي المسئول الأول، هي من تثير المغتصب بارتدائها ملابس الكافرات المتبرجات، ثم يعاقب المغتصب وتفلت هي من العقاب، وهي الأكثر منه جرماً لأنها المحرك لتلك الغرائز، وللأسف تقف دائماً مؤسسات الدولة من أمن وقضاء مع الفتاة ضد الشباب لانتهاكهم بما أسموه حريتها الشخصية، والتي جلبت لنا الكثير من المصائب، فكل يفعل ما يريد تحت شعار هذا

المسمى، وهل يمكن أن يكون هناك اغتصاب دون إرادة الفتاة؟.. بالله عليكم يا أولي العقول، وهل الخيط يلج في سم الخياط ألا بإرادة كلا الطرفين، ثم تقوم الدنيا ولا تقعد لأجل تلك المتبرجات، وقد امتلأت شوارعنا بالكاسيات العاريات وتطالعنا بهن إعلانات (المفسديون) (التلفزيون).. لقد رددنا كثيراً وسنظل نردد دائماً أن الحجاب طهارة وعفة المسلمة وسياج من الذئاب البشرية، فمن أرادت أن تقي نفسها فعليها بالحجاب، فهل ندعو أمواتاً؟ لا والله أبداً بل لا تزال في صدور المؤمنين قلوب يقظة.

كانت أم "عسَّاف" وشقيقاته من حضور تلك الأمسية، فكبرن مع المكبرات، وبكين مع الباكيات، بينما رفض والده الحضور، حينها توقف المرور في ذلك الشارع الذي امتلأ عن آخره، تلعن النساء تلك الفتيات اللاتي أوقعن هؤلاء الشباب في براثن الخطيئة، فصرن يتضاءلن في أماكنهن حتى يتسع المكان للرجال وحتى لا يكن كهؤلاء الفتيات، تمددت الذكور في خيلاء، كأنه حكم ببراءة بني جنسهم من تلك الأفعال.

وأسفر النزاع الدائر بين الأمن والجماعة على مسجد أبي الزهراء بانتقال المسجد لإشراف وزارة الأوقاف، التي جعلت فوق المسجد مستوصفاً، كان كل من يعمل فيه من أطباء وصيادلة وموظفين إلى عامل النظافة من الجماعة. ثم يصبح بعد ذلك مسجد المهدي مركزاً أكبر وأهم من مسجد أبي الزهراء وعوضاً عنه وبمباركة الحكومة أيضاً التي تغافلت عنه، فأقيم وسط

العمارات في الباحة التي بمثابة مسقط النور لها، كان قد تركها مهندسو البناء لتكون متنفساً لتلك البنايات، وقد وضع فيها بعض السكان مجموعات من الزهور والشتلات الصغيرة، إلى أن استغلها أحد الإخوة الذي يقطن بذات العمارات، ثم صارت الإمامة بعد ذلك للشيخ زيدان والأستاذ (شرف جميل المحيا) شبه دائمة وبتوجيه من الأستاذ عيد البحراوي، وقد افترشوا المكان بالحصير وأقيمت فيه الصلاة لأول مرة في ظهر شهر رمضان.

ثم أُستبدلت بعد ذلك الشتلات بوضع عموداً حديدي به حلقات حديدية تحوي كل حلقة إناءً فخارياً للشرب، ثم بدأ الإعداد لصلاة الجمعة بها والاستعانة بـ"عسَّاف" يخطب فيهم، وقد احتشد المصلون ولاسيما الإخوة، حتى امتلأت الباحة وامتد الحصير حتى منتصف الشارع الرئيسي، وأزيلت الفخاريات ليستوعب المكان ذلك الجمع، وقد وقفت الأخوات متحلقات يتساءلن أين أماكنهن، إلى أن جاء موكب كبير من الإخوة يترأسه عيد البحراوي و"عسَّاف"، تملأ أعينهما الرضا والحبور يلمح البحراوي النساء المتحلقات في أول الباحة من الجهة المقابلة فيسعد لجمعهن، فيشير بافتراش الممر والزقاق الخلفي للباحة لهن.

ألقى "عسَّاف" خطبة بليغة أشاد بها المثقف والأمي حتى تحمس قاطنو تلك المنطقة لبناء المسجد، وقد كان ذلك، وقد بدأ في تشييد أثاث صغير منحت الجماعة خاماته ادعى أحد الإخوة أنها من جيبه الخاص، ووضع صندوقاً خشبيا لجمع التبرعات، وسرعان ما شيَّد ما لا يتناسب مع

حجم تلك التبرعات، أشبه بمستودع أنابيب ولأن المظهر لا يوحي أنه مسجد، صنعوا قبة صغيرة من الخشب ومئذنة لا تتعدى المتر، أشبه بفانوس رمضان دهنت باللون الأخضر وكُتب على المدخل "مسجد المهدي".

وأصبحت تلك الزاوية مركزاً هاماً، ومجمعا للدروس الدينية والثقافية والمدرسية، ومنبراً لبث الأفكار المرجوة، وأيضاً كفالات مرضى وأيتام، انضم إليها الكثير من سكان المنطقة والمناطق المجاورة كانت أهم من مسجد أبي الزهراء وأوسع استقطاباً رغم صغر المساحة، فقط الفارق بينهما هو أن الأول في واجهة المنطقة والثاني خلفها أقرب إلى الملاح، تعقد فيه بعض الاجتماعات الخاصة بالجماعة، أو في بيت أحدهم لعدم لفت الانتباه، فجميعهم يعلم ما هي الطقوس المتبعة، ألا وهى على الحضور عدم إبلاغ أحد به، كما تغلق الهواتف جميعها وتوضع في منأى عن الاجتماع، فقد آثروا إضفاء السرية لتلك الاجتماعات؛ فربما كان يعلم الكثير بها ولكن لا أحد يعلم ما حكمة الإيحاء بسريتها.

يعكر صفو الشيخ زيدان في الذهاب والإياب وجود محل لتزيين النساء في طريقه من وإلى بيته والمسجد حيث يضع لافتة تحمل صورة لإحدى الفنانات، يغض بصره عنها إلا أنها ترقص داخل رأسه.

كانت مقهى "النجرو" تصدح بالأغاني وتصاعد دخان الحشيش وبيعه ليل نهار، ولكنه لم يحاول الاعتراض أو التعرض له، كان "النجرو" يصلي خلفهم ثم ينطلق سريعاً إلى مقهاه، دون أن يفتح أحد فمه، بدا

ذلك شيئاً طبيعياً تألفه عيونهم وأنوفهم بينما هذه الصورة هي التي كانت حائلاً لتطبيق شرع الله.

بعد انتهاء صلاة العشاء جاء الشيخ زيدان، ومعه مجموعة من إخوانه وهم على أتم استعداد لعمل بطولي، وقفوا في مفترق الطريق، شاهرين أسهم نار من تحت جلودهم ومن خلف أعينهم، إلا أن تعلو الوجوه ابتسامة كبيرة بملء الفم، ذهب أحدهم ليأتي بصاحب المحل، جاء معه وكله دهشة:

- لم يريدني الشيخ...؟!! أنا لا أصلي حتى ألتقي به في المسجد ولم أذهب لشراء شيء من عنده... من المؤكد لا يريدني لأزين إحدى نساء بيته، إذن ماذا يريد مني؟

تضاربت الأفكار في رأسه، فإذا به ماثلا أمام الشيخ، قال له بأدب جم وإذعان

- السلام عليكم يا شيخنا، أتريدني؟

رد الشيخ بلهجة شديدة منذرة قائلاً

- تعرف أن عملك هذا حرام، ولا يرضاه الشرع، ولكنا تركناك.. قلنا سيهديك الله ويتوب عليك

رد حسن صاحب المحل وهو يتضاءل داخل ملابسه مرتجف الصوت ولم يدافع عن مهنته

- وهل حدث مني شئ؟

- تضع صورة مثل هذه تؤذينا، تلقينا بحماقتك في جهنم

يكاد حسن يسقط على الأرض

- ما كنت أقصد، فقط منظر....

قاطعه الشيخ

- إن كنت تخشى على أكل عيشك هنا فانزعها فوراً
- والله لو قلت أذبح لك أحد أبنائي لفعلت..

رد الشيخ بنفس اللهجة الصارمة

- لا تذبح ولا تسلخ.. فقط، اتق الله.

لقد كان الشيخ زيدان شديد التعصب والحمية والحماسة في كل شيء يفعله رغم سنه الكبيرة، حتى أيام الانتخابات بذل بنفس حماسته تلك جهوداً ضخمة في معاونة "عسَّاف" وبعض الإخوة لإتمام المهام المسندة إليهم على أكمل وجه، إلى أن ظهرت النتيجة وكان الفوز حليفهم، شربوا نخب تلك المناسبة الكركديه والينسون في المكتب الجديد.. حينذاك كانت بداية الألفية الثانية، وقد تزين "عسَّاف" كعروس في ليلة زفافها، ارتدى بذلته الكحلي (الهيلد) الإنجليزي وانتعل نعله الأسود الإيطالي، وسبح في عطره الفرنسي، سوى حاجبيه ووضع قليلا من (الكريم) على ما تبقى لديه من شعر، وبخيلائه المعتادة وضع يده في جيب بنطلونه ونفخ صدره وشفط بطنه ومد جذعه ناظراً للأفق من شرفة مكتبهم الجديد الذي سيتلقون فيه شكاوى وطلبات الجمهور، كان في امتداده البحر والميناء، فلم يعد يرى أي

شيء حوله أو أسفل النافذة بل يرى نفسه في أبعد نقطة في الأفق، يراها شمساً تشرق ولن تغيب، يجتر ذكريات يوم أن ضمه شقيقه الطالب بكلية التجارة للجماعة، وكان ينبئه بهذا اليوم، الذي ستبدأ فيه دولتهم..

- الأيام دول يا "عسَّاف" ودولتنا قادمة، فبادر واحجز لك مكانا في الصدارة، إننا لم نستفد من الحكام السابقين ولم يعطنا الحاليون شيئا، فسواء هؤلاء أو أولئك طواغيت، نهبوا البلاد، ولا خير فيمن غدا ولا من جاء، ولم يعد الأمل إلا فينا، ونحن قادمون وعلى أيدينا إن شاء الله تسقط كل الطواغيت وحينها تكون دولتنا، ولنا في إيران أسوة..

علق "عسَّاف" على كلام شقيقه وهو لا يزال بالشرفة، كأنه يحدثه تواً، ولم يمر على حديثهم ذلك ربما قرابة العشرين عاماً

- نعم، أخيراً فزنا بمقاعد مجلس الشعب بهذه النسبة غير المسبوقة، هي خطوة واحدة نحو دولتنا، ولكنها تعنى الكثير.

الفصل الخامس

عند عودة "عسَّاف" من العمرة لم يستطع الانتظار دون أن يرى "ببا"، كما كانت هي أيضا تود رؤيته بفارغ الصبر، هاتفها هنأها بالعيد، ثم دعاها لأن تأخذ هداياها منه، فقد أتى لها بمعطف ومسبحة وماء زمزم، ولابد أن تأخذهم لتشرب من الماء المبارك في تلك الأيام المباركة، وهي أتت له بقارورة عطر ومزهرية لمكتبه.

كان هذا أول لقاء لهما بعد العودة، في أيام العيد أمام مكتب الأستاذ منتصر، وقد سبقها إلى هناك ينتظرها متلهفاً، عيناه على الطريق، علها تقر بطيفها على امتداده، وها هي تبدو من بعيد، يطلق موجات بصره ترصد خطواتها وهيكلها، وقد توارى خلف جذع شجرة مختالة تقطن الرصيف.

تفكر هي أيضاً كيف ستلقاه، وماذا تقول له، وماذا سيقول هو، وهل ستفضحها عيناها وقد فعل بها الشوق ما فعل، وفي المكان المحدد لم تجده ، وكانت تظنه سيكون في انتظارها متلهفاً مثلها أو أكثر، خاب ظنها، اعتراها شيء من التجهم، دارت عيناها في أول الطريق ومنتهاه، أوله مُهد بعناية ومنتهاه البحر، مياه بلا مرفأ. لم تشرد كثيراً، انشقت الأرض عنه، عيناه مثبتتان بعينيها، مبتسماً ابتسامته العريضة.. ارتبكت، فقد تعرى ما حاولت ستره، لاقته بجفاف مصطنع، رغم اضطراب صدرها وخفقانه

يفضح كل شيء، هنأته بالعيد، كان يود أن يضمها إليه لولا المارة، ترك جفناه يضماها، يذوب يتلاشى في صوتها استعذاباً، مدت يدها تصافحه، فصافحها بأطراف أنامله، ما لبث أن احتوى كفه كفها، كالغريق المتشبث بالحياة، كان يريد أن تمسح بذلك الكف الحنون جبينه، تزيل عنه حمى تسكن أحشاءه منذ أمد، وتطوف أناملها شفتيه، لقد قفز قلبه بكفيها، ورغم ذلك أمسك انجرافه، بدا غير مكترث، وبمجرد أن تركته وذهبت، كاد يُجن.. هرول في الطرق بلا وجهة، كأن في انتظاره شيء جلل، أو سينطلق قطاره مبكراً، يسابق زمنه الذي تبعثر منه الكثير في طرقات شتى قبل لقائها، وسرعان ما هاتفها، ولم تصل بيتها بعد، تسير ببطء، كانت تحمل خطواتها خيبة أمل، لا تعرف ماذا كانت تنتظر، إلا أنه فاجأها بطلبه..

- أريد الزواج منك، ولن أقبل أي تردد، أو حتى مهلة للتفكير

عادت إليها الحياة، ارتجفت، تخشى أن يكون حلماً طالما تمنته منذ أن رأته وتماهى بالخليل إبراهيم، تبدلت هي، اكتست بالجمال حلة، بدت كإلهة إغريقية، تخطو فوق قمم من جبال الثلج التي تعشقها وتشبه كفيها، كما قال هو لها ذلك:

- كفاكِ قطعة من برد

ترتعش الكلمات بين شفتيها، تتمنى أن تجد ردوداً شافية، أو مريحة، وغالباً ما ستقبل في كل الأحوال، يسري حديثه من أذنيها إلى جوارحها وقلبها، يخمر عقلها، بل يعدو لبها لاهثا لمعرفة المزيد عنه، تحول الشارع

الذي كان يضج بصراخ الصبية حولها إلى غابة استوائية، لا تسمع سوى صوت الزرازير والبلابل، وهمس أوراق الشجر.. قالت:

- ولكنك متزوج !!
- أولا ليس هناك ما يمنع شرعاً، كما لم أحدثك عن قصة زواجي هذه

تحملها الغبطة لا تدري لقدميها موضع،

تصرخ الصبية حولها:

- شوط الكرة
- انتظر حتى تمر السيدة

تعلق هي ولم تستفق من حلمها

- وهل لها قصة؟
- إنني في حكم المطلق، وأبحث عن زوجة، حتى أن والدي كان يبحث لي عن زوجة ريفية تطيع زوجها وتحترم أهله
- يعني أنت مطلق
- ليس بالضبط، ولكنه أمر كان مرجئًا من سنوات ووجب تنفيذه الآن

يصرخ أحد الصبية:

- شوط الكرة، إنك تضيع الوقت حتى لا تهزموا، سنحرز أربعة أهداف وتكون نهايتكم

يعلق آخر:

- نحن أصحاب أول هدف ولن نهزم
- إذن سأكون أنا س"ببا" فيه
- أنتِ السبب في إنهاء ذلك الأمر عاجلاً حتى لا تضيعي مني، ولكنك لست س"ببا" فيه من الأصل فهذا أمر منته ولا يصح التباطؤ فيه أكثر من ذلك، سأجيء إليكم أنا ووالداي يوم الخميس لنتفق، وليكن زواجنا سريعا، فلن أستطيع أن يضيع من عمري يوما آخر بعيداً عنك، وكفى كل ما ضاع قبلك، فقط لي رجاء
- رجاء؟!
- حجاب.. ترتدي حجاباً حتى لا يقتلني انتقاد الإخوة

لم تبد أي تعليق عليه، فهي في كل الأحوال لم تكن من رواد محلات التصفيف، فقط تقوم بشد شعرها الطويل للخلف في حلقة من المطاط على هيئة ذيل حصان أو مرفوع لأعلى على شكل الكعكة.

تصيح الصبية حولها

- شوط الكرة

لا تكاد تصدق بأن كل ذلك قد يحدث، كما تمنت، تود أن يُهزها أحداً بقوة، لتوقن بأنه ليس حلماً وأنها حقيقة.

تندفع الكرة من الصبية في اتجاه المرمى، يعترضها وجهها، تفيقها صفعة الكرة؛ فتصرخ متألمة

الفصل السادس

في أحد المساجد المقامة بمحاذاة شريط القطار والذي بدا كقطاع طولي يتكون من طابقين يتصدره باب رئيسي وعدة أبواب على جانبيه، كان أشبه بالمتاهة وقد استقطع من أبنيته مكان ليكون بيتاً صغيراً مستقلاً لأسرة لم يعرف كنيتها، أقيم على بعد عشرات الأمتار من مسجد المهدي ليكمل ويدعم ما بُدئ في مسجد المهدي الذي كان يكتظ بلافتات الدعاية أبان كل انتخابات، أطلق على المسجد الجديد اسم "رشيد رضا"، كان وسط الأكشاك التي تحتضن طريق القطار والتي يقطنها الواقعون خارج حساب الحكومات، وتحت عجلات الزمن.

اعتلى "عسَّاف" منبره ليلقي خطبته التي أعدها سلفاً لكي تستفز الشرطة وقد فعلها قبل ذلك مراراً، حيث تستهويه تلك اللعبة التي بات يتقنها، لعبة المطاردة، التي جعلت منه مجاهداً، يكرر مقولته التي جوفها بكثرة ترديدها

- ألا أن أكبر الجهاد، كلمة حق عند سلطان جائر!

أخذ ينتقد الحكومة والحاكم.

- يقول الفاروق عمر: والله لو تعثرت دابة في العراق لسأل الله عنها عمر، ويا ليتنا دواب في عهد عمر، وكما قال الشاعر ذهب الذين يعاش في أكنافهم، وبقيت في خلفٍ كجلد الأجرب (لبيد بن

ربيعة العامري) أن الطواغيت (عفانا وعفاكم الله) يجبنون أمام أحفاد القردة والخنازير فنصير في كل حادثة نحن دائما الآسفين، أسفاً يقتر من فم القتيل، عندما تُدنس مقدساتنا ويقتل المسلمون هناك، نُعلن نحن أسفنا مستنكرين، وعندما قتل محمد الدرة أول أمس أمام أعين العالم، استنكرنا وشجبنا وأسفنا مع الآسفين. وحين انطلقت مسيرة لنا من مسجد سيدي جابر تندد بهذا الفعل الإجرامي وتعبيراً عن غضب الشعب المصري، بعد منحنا تصريحا بها على مضض، جاءتنا الأوامر بفضها فوراً، حتى لا يغضب علينا الكيان الصهيوني، حرصاً على معاهدات السلام، أي سلام وأي معاهدة تلك التي لا تحمي المسلمين من بطش أحفاد القردة والخنازير! عندما قام سليمان خاطر المجند بالجيش المصري بواجبه منتصف الثمانينات حيث تواجد في خدمته بحرس الحدود أثناء تخطي مجموعة من الصهاينة لحدودنا المصرية، وتنفيذاً للقانون العسكري والأوامر العسكرية المعروفة له سلفاً وبديهياً بحماية حدودنا بكل ما أوتيا من قوة، وكانت هذه المجموعة قد عبرت الحدود وصارت تلهو فوق شواطئنا ولم يستجيبوا لتحذيره، بل ساروا مستهزئين به، فلم يجد أمامه سوى إفراغ سلاحه فيهم جميعاً؛ فكان عقابه السجن، ثم القتل في زنزانته وادعاء انتحاره، لنعود ونأسف مع الآسفين. وقد حدث أيضاً مثل ذلك تماماً في

دول عربية أخرى، حيث منعت السلطات الشعب من الاحتجاج على الانتهاكات التي تمارسها إسرائيل. إن تلك الطواغيت في كل بلادنا العربية استبدت لتقهر الشعوب، ولابد لنا كشعب أن نناصر الشعوب المسلمة، في كل مكان في العراق وفلسطين في السودان والصومال في الشيشان وأفغانستان ولتنفنا الحكام جميعاً أو تبيدنا جميعاً، فعندما آمن السحرة بموسى، وبأنه على الحق خروا لله سجدا وعندما توعدهم فرعون العذاب قالوا "**لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا**" سورة طه آية ٧٢

أنهى خطبته وزاغ في لمح البصر، ولأن المسجد كثير المداخل والمخارج، المعلوم منها والمجهول، لم تتمكن الشرطة التي انتشرت حول المسجد من القبض عليه، ولم يعد هو إلى بيته، بل كان في بيت أحد الإخوة، وعند انتصاف الليل وقفت عربات الشرطة أسفل منزل والده، اصطف الجنود بأسلحتهم في مدخل العمارة. أقسم لهم والده بأن ابنه لم يأت إليهم، وقد أخرج (كارنيهاً) وبعض الأوراق التي تثبت أنه رجل عسكري ويقدر معنى أمن الوطن، كانت أم "عسَّاف" ترتجف، بكت خوفاً عليه، عنفها أبوه

- والله لو كنت مازلت في الخدمة ومعي سلاحي، لضربت ولديك عبد الله ومحمد بالنار

ردت عليه وهي تبكي:

- تقتل أبناءك يا حاج لأنهم يدافعون عن القدس ويعبدون الله
- ماذا أصاب عقلك يا حاجة؟.. والله إن كنتِ جننتِ فأنا مازلت بعقلي، ماذا يعرف أولادك عن الحروب؟ وهل المسيرات التي ينظمونها وسبابهم الحكومة هو الذي سيحرر القدس؟ هم لم يعرفون الحرب ولم يروا منها شيئا، نحن من اكتوى بنارها ومازلنا نتذكرها بجراحنا وفقد أهلنا فيها، نذكر شهداءنا الذين تربينا معهم ولعبنا معهم حتى في الجندية كنت معهم، فكم من شهيد ممن نعرفهم ومن قريتنا فقط وكم من مركزنا منوف، لا يعرف الحرب سوى نحن.

تؤكد هي كلام زوجها لتسايره، ولكن لا يعنيها الشهداء الآن، ما يعنيها هم أولادها

- لنا الكثير من الشهداء، أخي سالم ومنشاوي ابن خالتك فكيهة الله يرحمهم جميعاً
- لقد بلغ تطاول أولادك ليس على الحكام فقط بل وأبيهم، أولادك يتطاولون عليَّ بحجة تدينهم وارتكابي المحرمات، ومتى كانت (الشيشة) محرمات؟
- لم يتطاولوا عليك يا حاج

- عندما يحيداني، يشعراني دائماً بأني دخيل عليهما، حتى أراه في نظرات أبنائهم وزوجاتهم، هل هذا ليس تطاولا؟.. طبعاً لأنك سبحتِ في بحرهم وصدقتِ نفسك وصدقتيهم أنك شيخة وهم شيوخ، الله يقطعكم ويقطع أيامكم السوداء..
- اهدأ يا حاج، وما ذنبي في كل ما يحدث؟
- سرتِ في طوعهم أنتِ وبناتك، وارتديت خماراً خلعت الطرحة، وما الفرق بين هذه وتلك، أليست الاثنتان تغطيان الرأس؟.. أريد فقط أن أعرف، لما هذا الشكل بالذات؟ ثم منذ متى وأنا أصلي وأنت كذلك؟
- طول عمرنا والله يا حاج
- إذن لما لم تأت لنا الحكومة الكافرة وتمنعنا من الصلاة؟ أبناؤك هم المعوجون يا حاجة، أفيقي.

تمتمت وانصرفت من أمامه عندما لوَّح لها بعصاه بل هم أن يضربها، وقد فعلها مراراً لنفس الأسباب، فقد ارتدت هي وأبناؤها ثوب الوعاظ عليه، نبذوه حتى صار في عصبية دائمة، كثير الاكتئاب، يجلد لأتفه الأسباب، متخذين من القرآن وألسنة سياطاً له، فكانوا دائمي تقويمه، وهو دائم العناد ولم يتخل عن دأبه يوماً، فشبَّهوه في عصيانه بأبي الخليل إبراهيم، داعين بعضهم بالاصطبار عليه.

كان أبوهم فيما مضى ضابطاً صغيراً بحرس الحدود معتداً بعسكريته، وكان يود أن يكون أحد أبنائه مثله عسكرياً ولكنهم رفضوا، قالوا أنهم يأبون النظام العسكري، وتحكم النفس في النفس، ولم يمر على تلك الدعوة وقت كبير حتى تجند محمد في الجماعة من خلال النشاط الطلابي بكلية التجارة، ثم ألحق أخاه "عسَّاف" بها، كانت تفخر بهما الأسرة لمواظبتهما على الصلوات حتى صار الأمر جلياً، لم تكن مواظبة على الصلاة بقدر ما كان تحولاً في حياة الأسرة جميعها، ظل الأب مرتاباً في ذلك لا يعرف ما هو بالتحديد. أزالوا صورته في زيه العسكري والتي كانت مصدر فخر له والمعلقة في بهو البيت، صارت الآن من قبيل الأصنام، علقت مكانها صورة لحسن البنا، لينقلبوا بعد ذلك جميعهم على الأب لاستمراره في تدخين النارجيلة، ولم يعد يساعده أحدهم في إعدادها كالسابق، بل تمردت كذلك زوجته وبناته زاعمين أن حكمها كحكم الخمر، لعن الله بائعها وساقيها وشاربها، انصرفوا عن خدمته في أي شيء، حتى لو ذهب إلى الطبيب يكون بمفرده، انعزل الرجل الطاعن داخل أسرته، ولكن ظلت له هيبته المعهودة، فإذا احتاجوه في شيء أسرعوا بتلميعه، خاصة أنه طليق اللسان فصيح، أما غير ذلك فلا وجود له، شيئاً فشيئاً تلاشى ما بناه من صيت وسط الجيران، فلم تعد أسرته تكنى بأسرة الضابط كما السابق إنما صارت أسرة المشايخ.

***

أراد "عسَّاف" أن يثبت لجماعته أنه لا يهاب أي شيء، فظل ينتقد حكومة تلو الأخرى بضراوة، أما جماعته صمتت، لا تبدي قبولاً أو عدمه، وقد اعتبر "عسَّاف" صمتهم هذا تشجيعاً ضمنياً له، صال وجال وطاردته الشرطة كثيراً، وتبرأ منه قادته في التحقيقات ملقين باللوم عليه وحده، وأن تصرفاته تلك ما هي إلا تصرفات فردية وليست بتوجيه منهم.

وفي إحدى المرات بعد ما أنهى خطبته النارية، أطلقت خلفه الشرطة وما أسماهم (الجراية) وذلك لسرعتهم في الركض ليتم القبض عليه، ولكن بدلاً من أن يقدم للمحاكمة عُقد اتفاق بعدم اقترافه مثل تلك الأعمال والتوقف عن تلك الخطب، كان حاضرا معه أحد قادته الكبار، ومنذ ذلك الحين صار على علاقة طيبة ومباشرة بأمن الدولة، فإذا استدعاه الأمن في أي وقت لبى على الفور، تاركاً كل شيء، فيختفي يومين أو ثلاثة ليكون هناك في استضافتهم ثم يعود، كان ذلك كعقد صلح بينهما تمهيداً لترشحه للبرلمان ليكون رجل سياسة لا رجل تصادمات، فأصبح مسئولاً عن استخراج تصاريح الوقفات والمسيرات وتأمينها، بل ومسئولاً عن أي خرق قد يحدث منها أو بها، فدائماً ما كان يسير ملازماً لرجال الأمن في تلك المسيرات، تدور بينهم أحاديث ومداعبات ومزاحات، حتى كاد لشدة التصاقه بهم لا يعرف إن كان ضابطاً معهم من عدمه، حتى بعض البسطاء لا يفرقون بينه وبينهم فإذا مر على من يتعاطى المخدرات في منطقته أسرع بالفرار هرباً منه، فيتبسم وقد ازداد اختيالاً.

الفصل السابع

هو في جبين البحر، والبحر في جبينه ، نضحه الندى، قمرٌ لليلها وشمسٌ لضحاها، تخشى أن يُغيِّبها الغيم يوماً، وتخشى فقده، كلما راودتها تلك الأفكار حاربتها بضراوة، لا تتصور حياتها دون تلك الجبهة والكفين والخاصرة السمينة، سياج أمنها وبئر أسرارها وخزانتها، تتفقد ملامحه وخلاياه، كأنما انقسمت عنها، كثيراً ما ظُن أنها ابنته.

يحيطها داخل دائرة ذاته، نواة وجوده، ومدار شمسه وضياؤها، لا تملها نفسه الملولة، يمازحها، يتأبطها، تشاركه عشقه للسينما، الذي أخفاه حتى عن أشقائه، يرى نفسه في كل بطل شاهده، يتوحد معه، يتألم لألمه ويفرح له، بل ملأ الكواليس صخباً، ربما كانت لا تكفيه حياة واحدة، ودور واحد فأراد أن ينسج من حياة الآخرين حيوات له، فهو في كل الأمكنة، هنا وهناك في نفس اللحظة، في الوقت الذي يطوف فيه مع الحجيج، يشاهد أحد الأفلام في السينما، أو بصحبة امرأة مأثور بها، يدخل اعتكافه موازياً محافله ومسامره، لا يدع هذا يفوته أو ذاك، يعيش بطولات أزمنة سحيقة وكذلك الحاضر والمستقبل في آن، فهو هنا جسد يملؤه الحضور، عيناه هناك في امتداد البصر، تجمعت فيه الأضداد وتنازعته، يجن جنونه ليكون بطل أي حادثة في أي مكان وزمان، حتى وفاة الأميرة ديانا كان يود أن يكون هناك، بل يكون هو عماد الفايد أو الأمير تشارلز، ولو كان

الثمن حياته نفسها، يملأ الحياة حياة، بل تنبثق منها ألف حياة، هنا زوج.. هناك عاشق، وثالث مغامر، وآخر مقامر، داعية.. وعربيد وزنديق في نفس اللحظة، وفيّ وخائن، حانث اليمين وبارّه، حافظ للنظام والقانون وخارق لهما.

لم ينس ذلك اليوم، عندما أُسند إليه دور في مسرحية تقدم على مسرح الشركة، نال إعجاب الحضور حين ذاك، ود لو أن تصير حياته كلها هكذا، بل يُقبر بأعتاب المسرح، لقد أثنى على دوره إخوانه هناك، كان ذلك في وقت مضى، أما الآن وقد ارتدى عباءة الخطيب، فلا يجوز له ارتداء غيرها، سجين تلك العباءة وكذلك متنفساً لذاته المتقمصة دائماً، فصنع من حياته مسرحاً لها.

يساوره القلق والاضطراب، لقد أنهى زواج "فريدة" سريعاً، حتى لا يكون التأخير مدعاة للتصالح، إنها خطوة ليست بهينة وقد يكون لها عواقب لم يدركها بعد، وبنفس الاندفاع أتمم زواجه من "بيا" غير مبالٍ إلا بجموحه، فكانت لحظات بعدها كالسياط تلهب وجدانه وفكره، ولا ترى عيناه إلا بقدر الفرجة الصغيرة في باب القدر. ود أن يأنس بموافقة إخوانه على فعله، حيث يعرف أنهم سيتصدون لهذا الزواج ولن يباركوه، ربما لا حرج في زواجه من الأساس ولكن ممن؟

لذلك لم يجد أمامه سوى التحايل حتى ينال موافقة جماعته دون صدام، فأخذ معه صاحبه خالد ليكون شاهداً على عقد القران، وهو أحد

الإخوة المقربين، ليصل الخبر بواسطته لباقي الإخوة، ثم تحاشى "عسَّاف" لقاءهم حتى يصير الزواج أمراً واقعاً، ويعتبر هو عدم لقاء إخوانه هذه الفترة صمتاً، والصمت موافقة ضمنية، ولكن في الحقيقة لم يكن خالد يمثل شيئاً في الجماعة، رغم أنه عامل نشيط بها، يقوم بتعليق وتوزيع إعلاناتهم ويقف معهم في تجهيز الميادين لصلاة العيدين لا أكثر، ذلك لأن زوجته لا تتعدى كونها في مراتب المحبين ولو انتقلت درجة واحدة بتوقيعها على استمارة ضمها لصارت عضواً مساعداً، وبلغ زوجها خالد ما تمناه من مكانة في الجماعة، كان خالد متخاذلاً متراجعاً لا ينبس بكلمة عن خبر زواج "عسَّاف"، ولم يقدم أو يؤخر، فكان كمن لا وجود له، وربما كان متعمداً ذلك، كل ما قدمه هو أن أعد لهما مأدبة لتتعارف زوجتاهما، تفننت زوجته حسناء التي تعمل طبيبة بمستشفى خاص بأمراض النساء، بإعدادها احتفاءً بـ "ببا" لأنها ليست من الجماعة مثلها، فحسناء أيضا لم تنتم للجماعة رغم أنها تلبس لباسهم وتردد مفرداتهم بل وقد تنضم لبعض رحلاتهم، ذلك كان إرضاءً لزوجها الطيب، فهي تحبه منذ كانا مراهقين صغيرين تتجاور بيوتهما ولولا أن زواجهما سبق انضمامه للجماعة بسنوات كثيرة ربما ما كان تزوجها هي بل زوجوه من إحدى نساء الجماعة.

تمر أيام "عسَّاف" مع "ببا" حلما يخشى زواله، طفلته الصغيرة التي يدللها، يقدم لها عرضاً تكون هي جمهوره الوحيد، يستعرض فيه ما تبقى لديه من مهارات رياضية، يدور على رأسه كنحلة وسط الحلبة أو المسرح،

رأسه أسفل ورجلاه لأعلى، يسعده انبهارها بتلك الأفعال، محاولاً تقديم المزيد ثم يتحول العرض إلي دائرة يدوران داخلها، في رقصة على موسيقى بيتهوفن التي تعشقها (Moon light (piano sonata فيأخذهما الدوران لأنجم بعيدة هي عشهما.

توالت أجازات "عسَّاف" وتغيبه عن عمله، فهو لم يحصل على أجازة من عدة سنوات، منذ أجريت له جراحة بالعمود الفقري استبدل خلالها فقرتين قطنيتين، ظل وقتها ثمانية أشهر طريح الفراش، وكانت تلك الأجازات مرضية فظل يحتفظ برصيد أجازاته السنوية كاملاً،كان يدخرها ليتقاضى عنها مكافأة كبيرة نهاية خدمته، أما الآن صار لا يعنيه أي شئ سوى الحصول عليها، تقاعس أيضاً عن المعسكرات التي يقوم بها الإخوة، وهي تشبه معسكرات الكشافة في المدارس، لم يعد يذهب للقاءات الأسرة، حتى أهمل الدعوة ومكتب منتصر وكذلك اجتماعات الشعبة، رغم أن التقارير ترفع بإدراج اسمه مع المواظبين على الحضور، ولكن كانت هناك تقارير أخرى تؤكد عدم التزامه، فلم يجتمع الإخوة إلا وجاء اسمه وذُكر ما طرأ عليه من تغيرات، حتى تخلخل وضعه لديهم، بينما لم يعد يشغله سوى العلاقة الجديدة، يريد أن ينهل من قرب توأم روحه وكفى، كان عاجزاً عن وصف علاقته وتعلقه بها، ولا يجيد تفسير ذلك، سوى أنه قد رآها مراراً في أحلام مضت، ولا يوقن أكانت رؤى أم أحلام يقظة.

يحاصر "ببا" بحبه واهتمامه فما يلبث أن يخرج حتى يعود إليها يفاجئها، يقفز أمامها كما لو خرج من مصباح علاء الدين فتصرخ وتضحك في آنٍ، بدا كأنه يخرج فقط ليعود يملأ البيت صخباً ومرحاً، فضلاً عن المهاتفات التي لا تنقطع دقيقة حتى في السويعات التي قلما يقضيها في عمله تظل معه على الهاتف حتى عرفت تفصيل العمل تقريباً، تسمعه وهو يتلقى أوامر رؤسائه وتسمعه وهو يعطي أوامره لمرؤوسيه، تتابع معه ضغط العمل وانفعاله فيه وأيضاً المزاح والنكات.

ومثلما ارتدت الحجاب لأجله تركت أيضاً العمل بتلك المنظمة الدولية والذي كان العمل بها يدر عليها دخلاً كبيراً، كان لديها شقة خاصة بها بحي محرم بك من عائد هذا العمل كانت جوار بيت والدتها ولم تنتقل إليها إلا بعد زواج "عسَّاف"، كانت قبلها تعيش مع أمها وشقيقتها المتزوجة بذات المنزل.

تبادلا الخطابات التي تفيض حباً كمراهقين، كان "عسَّاف" سعيداً بتلك المراهقة، يعيشها بكل كيانه، غارقاً في عشقه بمشاعره الأولى، بصدقها واندفاعها، كما لم يعش مراهقته من قبل، رغم كل ذلك الجموح الذي مر به، يعيشها الآن من جديد في عقده الرابع، تعطيه "ببا" خطاباً في الصباح يطير به فرحاً ويعود لها بخطاب، يحتفظ بخطاباتها تلك في مكتبه بالشركة ليعيد قرأتها مراراً كلما اشتاقها أو سنحت الفرصة كان يصوغ لها من مخزون ثقافته أشعاراً، بعضها مستعاراً من أشعار الجماعة، فكتب:

"أنتِ أغلى وأحب وأشرف النساء، الحياة تهون وكل شئ يهون، وأنتَ حبيبي أبداً لن تهون"

كتبت:

"أب لي أنت.. وصديق، وابن، ولدته لي غيري، تحمل صفاتي وأمشاجي وملامح وجهي، ما أقبح العالم دونك، عندما أكتب أبريل أكتب اسمك، عندما أكتب أمشير أكتب اسمك عندما أكتب تشرين أكتب اسمك، مداري سبعة أحرف هم اسمك"

كتب :

"عشقي أنت يا أحب النساء وأجملهن، ليتني لم أر قبلك، ليتني لم أعرف غيرك.. أشقاني البحث عنك، كسرني قبلك نساء كثر، أخذن عمري وأيامي هدراً وخضراً، لو أعلم أني سأجدك، لادخرت أيامي كلها لك"

كتبت:

"لم يكن على الأرض جنان، فكيف الآن أعيش فيها؟ قلبي أصغر من استيعاب أنهار هواك وروافده، وعليلاً أمام عنفوان حبك، لم يعد صدري يحتمل خفقانه، كالواثب من فوق النار، والهارب من وحش يتربص به، كالعائد من تيهٍ جامعاً شتاته لوطن يسكن فيه، فسكنت صدرك..

وتمر أيام كثيرة بعد واقعة حسن الكوافير والشيخ زيدان، ليتحول حسن لأحد الموالين للجماعة والمحابين لها، كما صار مواظبا على الصلاة معهم وفي مساجدهم، وقد أيقن أن مهنة الكوافير لم تعد تليق به لتعارضها مع الشرع، صار حسن يجلس طول اليوم أمام المحل الخرب لا يترك مقعده إلا ساعة الصلاة وكلما أتت إحدى النساء صرفها متعللا بأشياء شتى كالكهرباء مقطوعة أو البنات لم يحضرن ليقمن بعمل اللازم لها، وهكذا، حتى بناته اللاتي أعدهن ودربهن طيلة سنوات ليدرن معه المحل بل ويعتمد عليهن في كبره أصبحن لا يأتين إلا لوعظ النساء بل تعذيرهن، وذلك بطرح الأحكام الشرعية، وحكم المتزينات، ولكن الجماعة لم تترك حسن بعد أن اهتدى إلى الطريق القويم فخصصت له معاشا صغيرا مما تصرفه للأرامل والمطلقات المواليات لهم، وعند توزيع بعض الأشياء العينية يأخذ نصيبه.

حسن لم يرتق أبدا لكونه واحدا من الجماعة وإن كان يعتبر نفسه أحدهم، لقد فقد هويته فلم يعد كوافيرا ماهرا ولا شيخا ولا أحد أفراد الجماعة ولا له أي عمل، بدا لوحة مشوهة باهتة وقد انسكب فوقها سائل ما، فلم يبقى عليها سوى ارتشاح الألوان.

الفصل الثامن

في الاجتماع المعلن لأعضاء الجماعة البارزين، وبمكتبهم الرئيسي بتلك المدينة الساحلية والذي يطلقون عليه البيت الكبير، بأشهر شوارعها هناك وهو شارع صفية زغلول الممتد في ثغره البحر، كانت قديماً تمددت في ثغره قتيلة الإسكندرية الفيلسوفة الصغيرة "هيباتيا"، وفي عمقه ملتقى الحضارات والقطارات، يقبع مكتبهم هناك بأحد الأبنية القديمة بمنتصفه، تحيطه أشهر (سينمات) الإسكندرية، وأحياء المدينة الرومانية الغارقة: كوم الدكة وسحر دروبها تنبعث منها مقطوعات درويشية ممتزجة بإيقاع خيول من قرون مضت، يعطرها نسيم المتوسط، يدور حاملاً في كفه الملح، حرزها ورقيتها، شامخة فوق الهضبة، حورس وأبو الهول لتلك المدينة، رغم قصر قامة بيوتها القابعة فوق الربوة، إلا أن المعراج إليها يستدعى ارتقاء سلم من حجر البازلت أو الجرانيت على مدخل الحارات، لنجد في كل جدار مؤرخاً أميناً جالساً ككاتب فرعون يقرأ التاريخ، تطل من عليائها على عراقة وعظمة المسرح الروماني، يجاورها من الشرق رقي وذوق الحي اللاتيني، وامتدادها الغربي حي العطارين الشعبي، معظم قاطني ذلك الحي من الحرفيين، بناءو راقودة، تجد الإسكندرية هناك بكل حضورها، وبصمتها الغائرة في جبين الأزمنة. يحضره كبار الإخوة هناك، "عسَّاف" يملأ القاعة حركة وحماس، بزيه البسيط والأنيق، تملأ عينيه صيحة خيلاء كأنه يقول:

"أنا الإسكندر.. بعثت من جديد.."

تجلس "فريدة" وسط صُفية الأخوات، في ركن قصي قليلاً يشبه الحرملك، يفصل بين الرجال والنساء مجموعة من المقاعد، عيناها ترصدان تحركاته، بدت تنصب له فيهما الفخاخ، هو في حماسته تلك لم يرها، فدبرت أمرها أن تقع عينه عليها، وعندما فعلت ذلك تبدد صفاؤه واندفاعه، صبَّت عليه منهما ماءً آسنا، فخبت جذوته.

يبدأ أحد قادتهم بإلقاء خطبة يذكر فيها ما للوحدة والاتحاد من فوائد ومكتسبات:

- أيها الأخوة الأحباب إن يد الله فوق يد الجماعة، عملاً بقوله تعالى: (**واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا**) وإعمالاً بحديث نبينا صلوات الله عليه: (**لا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم**) في الطاعة اتحاد وأول درجات سلم النجاح والسيادة، بينما الاختلاف والشقاق هما أول الفشل وسيادة الأبالسة عليكم، وكما قالوا قديماً في (الاتحاد قوة) ونحن لسنا أي جماعة، نحن جماعة المسلمين، قوتنا في جمعنا، ولا مكان للشقاق بيننا، فمن المسلمات التي تربينا عليها جميعاً منذ نشأة الجماعة على أيدي الإمام، ألا وهي من خالف هلك، ومن ناقش هلك، والمثل الشعبي يقول: السفينة التي لها ربانان غالباً ما تغرق، بينما الطاعة تجعل سفينتنا تصل مرفأها بأمان، ولم يكن تسيداً من أحدٍ على أحد، بل فقط لجعل رباناً

واحداً لهذه السفينة، فطاعة الأمر ولو خطأ سبب تماسك الجيوش وقوتها، وأنتم جيوش سخرها الله لإحياء هذه الأمة، يا إخواني والله إن العوام لتحسدكم، وإن الحكام لتحاربكم، وإن الشيطان ليقهره جمعكم، فنحن جماعة تؤازر بعضها بعضاً، فمن ليس له أهل فهي أهل له، ومن يحتاج الحماية فهي كفيلة بحمايته، ومن طلب العون وجدها إلى جواره، في حين تخاذلت الحكومات عن أداء دورها في حماية الضعفاء، ورفعت شعار "القانون لا يحمي المغفلين"، ولكن قانون رب العزة يحمي الكافة، ورفعت الشرطة شعاراً (الشرطة والشعب في خدمة الوطن) والمقصود الحكام الطواغيت، أي وطن هذا؟ الذي استولوا عليه، وعند الحروب يدفعوننا في وطيس المعارك، أوطانكم يا أخي الحبيب دينكم، وجنسيتكم إسلامكم، فاستشهدوا لأجله، فلم يبق لكم غيره، بعد أن صرتم أغراباً في أوطانكم، أدام الله جمعكم، وأدامكم زخراً لأمتكم. أحبابي اليوم عيد نهنئ فيه أنفسنا، وجميعا إن شاء الله صيام غداً نافلة لله وتقرباً على ما منه علينا بتلك الأحداث لتعلم أمريكا والغرب بأن لن تمر أفعالها هكذا دون عقاب

(كان يقصد أحداث الحادي عشر من سبتمبر وسقوط برجي التجارة)، كان يزعم أن تلك الأحداث ذكرت في كتاب الله، وقد ذكر أيضا اسم الشارع الذي يقع فيه البرجان مدعياً بأن اسمه: "جرف هار"، وهو

نفس الاسم الذي ذكر في الآية مائة وتسعة من سورة التوبة تماماً، فدعا "عسَّاف" بقراءتها: "**أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم**"، وما أن انتهى "عسَّاف" من القراءة حتى هلل الجميع: "الله أكبر، الله أكبر"..

هذا ما كان يود أن يقوله وأفصح عنه لعيد البحراوي و"عسَّاف" ومجموعة من الإخوة قبل الاجتماع، لولا تواجد بعض مخبري وضباط أمن الدولة اجتماعهم هذا، فأرجأه لاجتماعاتهم المغلقة والسرية فيما بين الأسر والشعب، وراح يغازل الأمن بالثناء على الرئيس البطل، كما حث على التمسك بصحيح الدين في زمن القابض فيه على دينه كالقابض على جمر النار، ذلك لأجل النهوض بهذا البلد الآمن. ثم أثنى أستاذهم الكبير عقب الخطبة على الابن البار والتلميذ النجيب البحراوي لإعداده الاجتماع على هذا النحو، وقد تجاوز الأخطاء التي وقع فيها سابقه، كما أغبطه بخبر اختياره لترشحه لعضوية مجلس الشعب تحت شعار جماعته، كما سُر أيضاً بخبر ترشيح عضو آخر يبدو للكافة مستقلاً عن الجماعة، بينما هو أحد جنودهم المستترين، ولم يقع عليه الاختيار بعد، طالباً منه المعونة في إيجاد هذا العضو، مؤكداً له الأستاذ بضرورة أن يكون هذا العضو بعيد تماماً عن مركز الضوء والنشاط الدعوي، فاغتر البحراوي ولم يعد ينظر في الوجوه بل ينظر إلى ما فوق الرؤوس مختالاً يرى البشر أقزاماً، ليس بصنيعه أو بخبر اختياره فقط، بل بما اختصه به من سر، هذا معناه كبير لديه..

أدار سيارته الجيب القديمة والتي تشبه سيارات الجيش في السبعينات، والتي يصر عليها رغم العرض عليه بأخرى حديثة، انطلق يجوب شوارع المدينة، بدا قائداً عسكرياً يطوف بها يتأملها، يراها الآن غير ذي قبل، كمن يرها لأول مرة، ربما كان يشعر بأنه غازٍ لها، أو هي مُلكه الذي يريد انتزاعه متعجلاً، ومن صفية زغلول إلى شارع فؤاد ثم شارع أحمد عرابي، فميدان المنشية، فطريق الكورنيش.

الفصل التاسع

اليوم جلسة استئناف الحكم الصادر ضد "عسَّاف" بالحبس سنة، بعد مرور قرابة السنة والنصف على تلك الأحداث، في الانتخابات الماضية على أثر ضربه لرجل جادلهم بشدة وعنف أثناء انعقاد المؤتمر الانتخابي، ربما كان ذلك الرجل يريد إفساد مؤتمرهم وفضه، وربما كان يريد سماع شئ يقنعه ببرنامجهم، كان "عسَّاف" أعلى المنصة مع بعض الإخوة من بينهم عيد البحراوي، وشرف جميل المحيا، وآخرون، أخذ أحدهم (الميكروفون) وصار يشرح البرنامج الانتخابي الذي سيكفل فيه الغني الفقير، وتقام المؤسسات الصحية والتعليمة والدينية، حتى لا يبقى محتاجاً أو مريضاً، فبينما هم يشرحون ويدعمون مرشحهم، والذي أعلن أنه مستقل بينما الناس والحكومة تعلم تماماً بأنه مرشح الإخوان، حيث تكتب شعاراتهم في الدعاية له واضحة أسفل الصورة ذلك لأن الجماعة لم تصر حزباً بعد لإدراج مرشحيها على قائمته لذلك كان جميع مرشحيهم مستقلين، فقط يحملون شعار الجماعة؛ فكان يأتيهم صوت من بعيد يكذب دعواهم، آخذاً انتباه الحضور وآذانهم فيما يقوله:

- نحن لم نر منكم أو منهم شيئا سوى عقد المؤتمرات.. ماذا تقول يا أستاذ، إنه لا يوجد في البلد سوى حزب واحد والآخر جماعة لا يعترف بها كحزب، فهل من المعقول ألا يوجد سوى طرفين، واحد

حاكم وآخر ديني، وكأننا نقول أنه من يصلى هو نفسه من يفسق، ومن يحمي هو نفسه من يسرق.

رد أحدهم من فوق المنصة متهكماً:

- هناك حزبا: الوفد والعمل، أم الأستاذ ليس من هذه البلد؟

وتغامز باقي الإخوة.. علت الضحكات، فأتى رده:

- نعم هي أحزاب عملياً لا وجود لها، فقط لا أرى سوى أنتم والحزب الحاكم

جاء الرد أكثر تهكماً:

- وهل نحمل نحن بفشل تلك الأحزاب؟

وارتفعت الأصوات محاولة التشويش على ذلك الرجل، وتجاهل الواقفون فوق المنصة صاحب الصوت مرددين:

- الإسلام هو الحل، لا يظلم المسلم أخيه المسلم، ولا يكون مسلماً من بات شبعاناً وجاره جائع

إلا أن الصوت ظل يسأل حيناً ويكذب أحياناً، حتى ضاقوا به، قفز "عسَّاف" من فوق المنصة وانطلق نحو صاحب الصوت، انهال عليه ضرباً بالركلات واللكمات

- قل من وراءك... أرسلوك هم. أليس كذلك؟

نُقل الرجل إلى المستشفى وقد حرر محضرا بالواقعة، مرفقا به التقرير الطبي، مما ترتب عليه صدور حكم بالحبس سنة على "عسَّاف"، ولكنه

كان واثقا من جماعته، غير مكترث بعواقب ما فعل، وقد وجد وراءه رهطاً من المحامين والمحابين والتابعين للجماعة، فمنهم من ذهب معه إلى قسم الشرطة ثم النيابة ومنهم من ذهب إلى الرجل يساومه.

جلس "عسَّاف" داخل القفص في انتظار الحكم المستأنف، بدا طفلاً وديعاً رغم ضخامته، دمثاً، صامتاً، فكان في صمته بليغاً، يعلو وجهه البشاشة والسكينة والرضا، مطبق شفتيه بابتسامة صغيرة كتلميذ ابتدائي في حصة دين، حتى خصمه جاء إليه مصافحاً، بدا لديه شعورا بالذنب تجاهه، لقد كانت لدى "عسَّاف" ملكة وهي أن يجعل من حوله يتعاطفون معه، فيشعر المظلوم بأنه هو الظالم، وبنفس قوته يستطيع أن يقتل من أراد غيظاً، أو ضرباً

الفصل العاشر

- **نجينا يا رب، نجينا يا رب**

عاد "عسَّاف" من عمله يملأ وجهه الحبور، ممسكاً بجريدة في يده، وعند ولوجه غرفة المعيشة حيث "ببا"، التفت على صراخ المعتوه.. علقت هي:

- ربنا يشفيه

جلس جوارها احتواها في جوف إبطه كقطعة منه، أمطرها قبلات: رأسها، يدها، أنفها، جبهتها.. تلامست أطراف أنفيهما يميناً ويساراً ذاب كلاهما في الآخر، توحدا، ثم أعطاها الجريدة قائلاً:

- وزارة المالية أعلنت عن احتياجها لموظفين في جميع المحافظات وسنسافر غداً القاهرة، نقدم لك طلباً هناك حتى لا تلوميني ثانية لتركك عملك في تلك المنظمة، مع أني مازلت أفضل عدم عملك بالمرة، حتى لا يفنى عمرنا في العمل وقد ضاع منه الكثير من قبل.
- لم يعد العمل يهم، ما دمت معك أسكن صدرك..

كان لا يعنيه طلب العمل، وإنما هي رحلة ترفيهية كغيرها من الرحلات التي كان يعدها من أسبوع لأخر. أقلهما القطار من محطة مصر بالإسكندرية المتجه إلى القاهرة، كانا في حالة عشق لم يمرا بها من قبل،

كانت حلماً أقرب إلى الخيال، تتبعهما عيون الراكبين والعاملين بالقطار، يحسدونهما، حتى أن موظف القطار قال له:

- أظن أنكما تزوجتما حديثاً؟

ابتسم، وتبسم مسئول قطع التذاكر، وظل هو لم يسعه القطار سعادة وغزلاً، وعند وصولهما القاهرة جلسا في (كافيتريا) المحطة يكملان حديث عشقهما، أخذا شاياً وقطعتين من (الكيك).. باحت له بسرها، بوجوده لقد رحل كابوسها المزمن وربما مات، وباح لها بأن قلبه كان خواءً تنفخ فيه الريح. ثم استأنفا رحلتهما إلى وزارة المالية التي كانت تضج بالوافدين من جميع المحافظات، قال لها:

- أرأيتِ حبيبتي ماذا تفعل بنا حكومتنا، أخشى أن تكون قد عينت ما تريده سلفاً، وهذا المشهد فيلم لا أكثر..
- كل شيء في بلدنا بالمحسوبية، فلم لا نتصل بالأستاذ منتصر عله يستطيع فعل أي شيء

تجهم ولم يرد، خشي الاتصال به ولا يفعل شيئاً فيظهراً أمامها أن مكانته في الجماعة ضئيلة وبلا أهمية، كما خشي أن يكون مضطرا أن يبلغه بخبر زواجه الذي لم يمر عليه سوى بضعة أسابيع.

طلبت منه ثانية الاتصال به، فلم يجد بداً من ذلك، وبعد السلامات والتحيات انخفض صوته، ثم ذهب بعيداً بالهاتف وكأنه يحدثه في أمور عسكرية، وبعد إنهاء المكالمة قال لها:

- إنه يقول أنها خدعة فعلتها الحكومة كي تحيي الأمل داخل الناس حتى لا تنفجر أو تطق، أرادت تعطيهم جرعة منوم أخرى..

ظلت تحملق في وجهه، لف ذرعه حول كتفيها وتوجها للعودة

- لا تتجهمي، وهل تحتاجين لعملهم؟ إننا قد تعودنا وألفنا ذلك، كل الوظائف في مصر بالوراثة، لا يبرح الموظف وظيفته قبل أن يتسلم خلفه وظيفة في نفس الشركة..
- هو قانون؟
- ليس قانوناً، ولكنه من المسلمات، عرف متبع في كل المؤسسات
- ومتبع في شركتكم أيضاً؟
- نعم...، ولكن عندنا نظام آخر متبع أيضاً وهو إما دفع مبلغ كبير، وإما تزكية من أحد المسئولين أو شخصية لها ثقلها في مجلس الشعب
- ندفع مبلغاً لتعييني بشركتكم، وأظل معك طوال الوقت؟
- والله رئيس مجلس الإدارة رجل خلوق، لا يرفض لي طلباً كهذا، وقد يكون ذلك فيما بعد، دعينا الآن نقصر الظهر والعصر بمسجد الفتح.

الفصل الحادي عشر

لا يزال "عسَّاف" يذكر تطاول "فريدة" عليه وعلى أهله وإهانتهم، والطامة الكبرى التبليغ عنه أمن الدولة واتهامه بالإرهاب، ذلك في نهاية الثمانينات، أول عهده بالجماعة، وحداثة سنوات زواجهما، كان ذلك رداً على تعديه عليها بالضرب لتكف عن السباب، مما جعله يزيل لحيته الكثيفة والمخيفة خشية عاقبة فعلتها تلك، وربما مصادفة من حينها صار ما أسموهم بزوار الليل (أمن الدولة) دائمو التردد عليه، فصار دون لحية ودون شارب، بدا وسيماً وأكثر خيلاء، حتى صلعته لم تأخذ منه بل منحته وقاراً وهيبة؛ ذلك لوجود تشدد أمني كأعمال احترازية، منذ مقتل الرئيس السادات على أيدي الجماعات الإسلامية، وما سبقها وأعقبها من بعض أعمال إرهابية متفرقة في مصر بل والوطن العربي،كخطف وقتل الشيخ الذهبي وقتل الأقباط وحادثة المنصة وما سبقها من قتل ثمانية وستين من عساكر وجنود مصريين وحادثة اختطاف الطائرة الكويتية والهجوم على الحرم المكي (سنة تسعة وسبعون) وغير ذلك الكثير من صناعة المتطرفين دينياً. وقد أطلقوه هذا الاسم على (أمن الدولة) منذ الستينات ومازالوا يدعونهم به فيما بينهم.

ومنذ فعلتها "فريدة" تلك، عمل "عسَّاف" على انضمامها للجماعة، حتى يأمن شرها، كما زوج شقيقتها لأحد الإخوة،

وضم أخويها أيضاً، فصارت أسرتها كلها إخوانية، ولكنه ظل يلعن معرفته بها، ولم ينس فعلتها، بل ظل متوجساً وشايتها.

عندما التقى بها أول مرة كانت موظفة شباك تذاكر بإحدى (سينمات) وسط المدينة، انجذب لجمالها،كان ينتظرها كل يوم على كورنيش البحر ليقوم بتوصيلها إلى عملها أو العودة منه، كانت تشع أنوثة وجمالا، ولكن صدمه معرفته بعد عقد القران بأن خالتها راقصة، وقد اتخذ قراراً بالانفصال ولكن أمه رفضت، خشية أن يعاقبها الله في أولادها، مدعية عدم أخذها بذنب غيرها "**ولا تزر وازرة وزر أخرى**"، ولكن "فريدة" لم تعلم ما كان يدور داخل الأسرة ولم تحفظ جميلاً لأحد، فأبدت احتقارها لأهله وشقيقاته، كثيراً ما كانت تثير غيظهن بأنها تركية الجمال تماماً كأهل والدتها الأتراك، فبدأت من حينها المشاحنات، هن يدعونها بابنة الراقصة، وهي تدعوهن بقصر الذيل. وكي لا تتفوق شقيقة "عسَّاف" عليها في العمل الدعوي وسباق الصلاح والإصلاح، كان نشاط "فريدة" الدائم في الجماعة يجعل لها السبق والتي ظلت خطاها حثيثة في تقدم مكانتها في الجماعة فباتت رمزاً بين الأخوات، وقائدة نسائية لا يستهان بها تتلقى الأوامر بتنظيم الاجتماعات النسائية والندوات والموضوعات التي يجب تناولها، كالطهارة وطاعة الزوج وغيره، وإلى جانب ذلك مباشرة أنشطة الزهراوات (البنات المراهقات)؛ فيضيع كامل يومها في كل تلك الأمور التي كان لا يقبلها "عسَّاف" من قبل، حيث أن ذلك كان خرقاً لقانونه

ومبادئه، إلا وهو لا يجب أن تنشغل الزوجة بأي شئ سوى الزوج، فكان النشاط الدعوي ملاذاً لكسر تلك الضوابط التي وضعها، فانشغلت بها عنه وعن أولادها، صارت تتنقل هنا وهناك تذرعاً بخدمة الدعوة وكما يقول ويفعل هو، فإذا أبدي تذمره، شكته للأخوات اللاتي يرفعن شكوها لأزواجهن، ليجد نفسه محاطاً بالعتاب واللوم والانتقادات، فمن يقول:

- إنه نشاط نسوي لا عيب فيه ولا اختلاط.. فلم منعها؟

وآخر يسدى إليه التوجيهات، وثالث ينبهه:

- بأننا أسر إخوانية ولسنا أفرادا، فلم يريد أن ينحِّيها؟

تأتيه التوجيهات من هذا وذاك، من هو أعلى منه ومن دونه، حتى أذعن لرغبتهم ورغبتها، فكان ذلك انتصاراً لها، كسرت قيده، وصارت أكثر منه نفوذاً في الجماعة.

كان "عسَّاف" دائما يريد أن يجمع بين النقيضين، يريد أن تكون زوجته له وحده وبنفس الوقت يريدها ذات حضور اجتماعي ليفخر بها، وتمسحاً بالتحضر وأسوة بزميلته أمينة التي كانت أمه تأمل في زواجه منها.

أوجد "عسَّاف" ل"فريدة" عملاً بمصلحة الشؤون الاجتماعية، ثم حثها على الاستقالة بعد سعيه بكل طاقته لتتسلم وظيفة حكومية، ذلك لإثارة غيرته من زميلٍ لها، فرأى درءاً للمفاسد تركها ذلك العمل، وقد ادعت ما ادعته لتثبت له أنها ابنة راقصة ولكنها أشرف من الكثيرات، ترسم عليه دوراً كانت تعلم تماماً أنه يريدها أن تقوم به، يحتاجه كالدواء ليطمئن لها،

وكانت بذكائها بل وفطرتها تقرأ ما يدور في خلده، باتت أكثر منهم جميعاً تشدداً، هذا ليس لإيمانها الأقوى، إنما حتى لم يعد يؤرقه بعد ذلك عمل خالتها، فخالتها لم تكن بهذا الورع ولا العلم بحدود دينها، فالفجوة كبيرة بينهما والمسافة أيضاً بعيدة، فصار "عسَّاف" فيما بعد لا يجد غضاضة في أن ينفق على تلك الخالة . التي صارت مسنة . من خير جماعته فصار لها راتب شهري في أموال الزكاة الذي كان مسئولاً عنها.

الآن عمل "عسَّاف" على التخلص منها، وقد حزم أمره ليفتك بألد أعدائه إلا وهي . "فريدة" . والتي كانت حبه سلفاً، بات يراها قيداً يرسف فيه، ولم يعد يذكر سوى كل ما يشينها، ورغم أن حياتهما كانت تبدو هادئة إلا أن كليهما كان يخفى شيئاً آخر، وفي أقرب فرصة افتعل خلافاً لترك المنزل على أثره، ثم استغل انشغالها بزفاف شقيقها، وعاد لجمع بعض ملابسه وأشيائه الضرورية على عجل، وقد ترك بعضها، وكأنه يعلم بأنه سيعود لا محالة ولا يجب أن تفرغ خزانته منها أو كان يخشى فراغ قلب "فريدة" من حبه فدائماً يترك خلفه ما يثبت عودته، فيظل مكانه محجوزاً في قلبها وفي الخزانة . ساوى شعره وحاجبيه بيديه في مرآة (الكونسول) وعند خروجه من العمارة، وجدها أمامه، تبتسم.. بدت مسرورة لرؤيته، أكدت عليه ألا يتأخر عن الحفل، لم يرد تظاهر بأنه منشغل ولا وقت لديه للثرثرة، ورغم أنه قد لفت انتباهها وجود حقيبة معه، إلا أن ذلك لم يستوقفها، فأحياناً كثيرة تكون معه تلك الحقيبة في حالة ذهابه لأمن الدولة أو إحدى

رحلات الإخوة أو المعسكرات، كما كانت هي منشغلة أكثر من أن تسأل عن سبب حمل تلك الحقيبة، وأيضا تملك لجامه، فليذهب كيفما شاء وسيعود صاغراً، لم تعرف أن هذه المرة قد تكون بلا عودة.

"بتغيرك أيام وتبدلك أيام يا لعبة الأيام..."

تصدح دائماً أنغام هذه الأغنية للمطربة الشهيرة وردة من مقهى "النجرو" أسفل بيت "فريدة"، فهو عاشق لأغاني تلك الفنانة ولاسيما هذه الأغنية، تملأ أنغامها المقهى والشارع . ربما كانت كلماتها تعبر عن حال "عسَّاف" . كما يملأ دخان الحشيش المتصاعد من المقهى شقتها، وعندما اشتكت لزوجها لم يفعل شيئاً، بل لا يزال يلقي عليه التحية المفعمة بالحب والأواصر الطيبة، فافتعلت خلافاً مع زوجة "النجرو" بالشقة المجاورة لها، وكانت معركة كبيرة بين تاجر المخدرات وتاجر الدين، كانت ستحل بسببها الدواهي على كليهما، لولا تدخل بعض قادة الجماعة وبعض المسجلين والمعروفين لديهم، الذين كان يستعين بهم بعض أعضاء الحزب الوطني في الانتخابات، فبينهم الكثير من الحروب والمهادنات، ومنذ ذلك اليوم صارت بينهم أواصر صداقة وحدود، ليس لأحدهما تخطيها، ولا تمنع هذه الصداقة أيضاً عند وجود المصلحة أي الانتخابات أن يفتك أحدهما بالآخر؛ فالانتخابات موسم حصاد لكليهما ينتظران قدومه، وفيه قد يلتقيان بالأسلحة البيضاء، كانت المدعوة روحية الغجرية لا تدخل لجنة انتخابية إلا وأثارت فيها الذعر والفوضى، تقف هي وبناتها في صفوف الناخبات

تسرقهن وتملأ أماكنهن بالمازوت، فتعود النسوة أدراجهن، فيضيع ما أنفقته الجماعة عليهن طوال العام من أجل ذلك اليوم هباء، فيقع المحظور بينهما من طحن وعجن، تحمل سيارات الإسعاف بعضاً وسيارات الشرطة بعضا آخر، وغالباً ما ينتهي بالصلح مقابل مصالح أخرى، وهكذا مصالحهما لا تنتهي.

لم تجد "فريدة" في أهل زوجها من يقف بجانبها يمنعه من الزواج بأخرى، يعيده إلى أولاده، بل كانوا يباركون زواجه هذا، لقد تركت من قبل شقتها في بيت أسرته بعد منازعات كثيرة بينهم، فكانت تعلم أن "عسَّاف" يخونها فإذا اتهمته بالخيانة، اتهمها بالإهمال والتقصير، فكان شعاره "خير وسيلة للدفاع، الهجوم" وعندما وقعت بينهما مشادة بسبب ذلك لم ينصفها أحداً منهم، فما كان منها ألا أن تسبه وتسب أهله، تتهمهم بأن تدينهم رياء ويتهمونها بأن خلقها خلق الراقصات كخالتها.

كان أكثر شئ تخشاه هو انهيار شركتهما، فهي على أتم الاستعداد لقتله أو قتل نفسها لتظل هذه الشركة قائمة ليس لأنه رباط مقدس ولا لحبها الشديد له.. لا، بل لأنه لابد وأن تأتي تلك الشراكة بثمارها والتي لابد وأن تكون رابحة، كانت تعمل دائما لتظل مستمرة.

الفصل الثاني عشر

– **نجينا يا رب، نجينا يا رب.**

رغم أنهما في شقة المعمورة بعيداً عن محرم بك والمعتوه، ظلت تأتيها صرخاته في نومها وصحوها حتى تعلق أحياناً على بعض المواقف بجملته، "**نجينا يا رب**"، هذه الشقة تملكها "عسَّاف" بعد زواجه من "ببا"، كان ثمنها مناصفة بينهما، كانت على الشاطئ، وقد قررا أن يقضيا بها شهور الحمل الأولى حيث تزامن معه شهور الصيف وحرارة الطقس، كانت "ببا" لا تسعها الدنيا سعادة بهذا الحمل، ولكن "عسَّاف" لم يبد حفاوة به، كما لم يبد غير ذلك، ولكنه سعيد معها، يعود مهرولاً ليلقاها، لا يسمح لأحد أن يأخذ من وقته برهة تبعده عنها، كان كالحمام لا يكف حباً لها وغزلاً تتلامس أطراف أنفيهما فتقع الحدقة في الحدقة والأنف والشفتين وعلى موسيقى تشايكوفيسكي (swan lake) يدور بها ويدور تلفهما أنجم وزهور، يتهاديان معاً في حديقة قصر المنتزه، بين شجرها السامق كأهداب الغانيات، يطوف بها ملكاً لمصر والسودان، مستقر رأسها في جوف إبطه ومستقرة الحديقة بعين البحر، يحاذيان البحر وفندق فلسطين كعاشقين يريدان الغرق معاً، فكان جمعهم تاجاً من أزهار الأوركيد تزين شعر فتاة البحر.

في هذا الصيف كان أحمد شقيق "ببا" في زيارة لمصر عائداً من اليونان في أجازته السنوية، فاستضافوه بشقة المعمورة،كانوا يقضون معظم الوقت بالشاطئ..

تنكسر أشعة الأضواء الخافتة في الليل على صفحة الماء، ووشوشة البحر الهامسة تحولك عن كل شيء، هو لك وحدك، يرقص لك يعزف لك، ينام طفلاً في جفنيك، بل يعكس صوراً في الأذهان عن الليالي الألف.

يحكي أحمد لأخته وزوجها عن بعض العادات الحميدة في الغرب ومدى تخلفنا نحن عن ركب التحضر الذي صار بمقدار سنوات ضوئية، ثم سأل:

- ماذا أصاب مدينتا الجميلة..!! انتشرت بها الأبراج والعمارات على أحدث طراز ولكنها لا تتناغم مع طبيعتها، كم هي قبيحة ومنفرة أين شخصيتها المعمارية التي تجعل لها تفردها والتي طمستها أيدي جامعي الأموال، لم تركوهم يعبثون بخصوصية جمالها هذا؟
- كل شيء هنا صار محزنا أن ترى مدينتك كل يوم تقتل، أنهم يغلقون البحر بحواجز وأبنية، هذا للهيئة كذا، وتلك نقابة كذا، وذاك نادي كذا، وأخشى والله أستيقظ يوما، لا أجد البحر

- كيف مدينة عريقة مثل مدينتا تشوه هكذا، صارت مدينة دون حصون، كفتاة عارية على قارعة الطريق يعتدي عليها كل ما أصابت عقله لوثة
- هذا صحيح أخي

شيئاً فشيئاً تطرق الحديث للدين والسياسة، وكالعادة صال "عسَّاف" وجال، إلا أن أحمد كان لا يعجبه الحديث الذي بدا منمقا ثم صار لاذعاً من وجهة نظره، ولكن "عسَّاف" ظل مسترسلاً:

- هذا لأننا ابتعدنا عن تطبيق شرع الله، وصارت شريعتنا هي الشيوعية والعلمانية والليبرالية!

تبرم أحمد، ولم يطق صبراً بدا معدا سلفاً لينفجر. كان في نفسه شيئاً قديماً تجاه "عسَّاف" وقد أرسل لـ "ببا" عدم رغبته في الارتباط به إلا أنها أصرت عليه. لقف أحمد الكرة سريعاً ليحرز هدفاً في مرمى "عسَّاف"

- دعك من تلك المصطلحات التي لا يفهم مقصدها لدى الكثير، فتعني عند البعض حرية أو مساواة.. سمها كما تشاء وعند الآخر كفر وزندقة ونحارب بها بعضنا بعضاً هذا علماني وهذا يساري وهذا ليبرالي وفي النهاية نجعلهم جميعاً كفارا

امتعض "عسَّاف" بحديثه بل رآه تهكماً ولكن أحمد استمر في حديثه:

- الجماعات الدينية تضعنا دائماً على جمر في حيز صغير علينا ألا نتخطاه، تقول عنه حدود الله، فإن كان ذلك الحيز الضيق حدود الله، فرحابة الكون لمن، ورحمة الاختلاف لمن؟
- إنه دين لا يجب أن يُأخذ بالهوى، إنما نطبق شرائعه كما أنزلت، بينما الاختلاف يفتح لأصحاب الأهواء باباً لا يُسد.
- أنت لست الله لتجعل نفسك رقيبا على القلوب، فالاختلاف رحمة بنا، ولا يجب أن نكفِّر الآخر لاختلاف فقهي لا يؤثر في أصل الدين من شيء، بل هو مجرد رأي فقيه من الفقهاء، أتذكر قصة قديمة عالقة بالكاد في ذهني كان يقصها لنا الكبار، وأظن أنك تعلمها وهي عن رجل بدوي أمي، كان فيما مضى من أزمنة بعيدة يعمل راعي أغنام، وربما هي كانت غنمة واحدة، كان يقول في صلاته: "أعبدك ربي، هذي عصاي وهذي غنمتي هما كل ما عندي وهما لك ولأهلك فباركهما وأعبدك ربنا لأنك تستحق أن أعبدك"، ولم يزد شيئاً على ذلك، فظل هكذا سنوات كثيرة يصلي، فبينما هو يرعى غنمته مر عابر سبيل كان عالماً فقيهاً، توسل إليه البدوي أن يعلمه كيف يعبد الله، فظل يعلمه يوماً وليلة ثم انطلق بمركبه راحلاً، وعاد البدوي ليصلي فلم يجد في رأسه مما علمه له من شيء، هم يركض خلفه، ينادي "يا شيخي يا معلمي"، ولم يسمعه العالم، فاتخذ البدوي منديله بساطاً فوق النهر، حتى أدركه،

ذهل العالِم بما رأى وسأله: "ما أتى بك يا غنام".. "نسيت ما قلته لي يا شيخي".. تبسم العالِم وقال: "عد يا غنام وصلي كما كنت تصلي فأنت والله لأقرب إليه منا"، والمقصود بهذه الرواية البسيطة أن الأصل هو الإيمان، الإيمان الذي يملأ سناه قلوب المؤمنين وأنفسهم، لا المظاهر والمجاهرة بالتقوى، والمؤمنون به تعالى ليست جماعة بعينها، ولا المسلمون هم فقط المؤمنون.

- تقصد من بالمؤمنين غير المسلمين؟
- أقصد كل من له آله يؤمن به
- كيف كل من له إله؟ أتتعدد الآلهة كالجاهلية الأولى؟
- لا ليس تعدد وإنما هو آله واحد كل يؤمن به، ولكن كل بطريقته وسبيله، كأصحاب الرسالات السماوية الأخرى اليهودية والمسيحية مثلا بل وغيرهما، وكما يقال عند أهل الصوفية العقائد هي سكك إلى الله، والسكك إلى الله بعدد أنفاس البشر..
- هؤلاء ليسوا بمؤمنين، لأن عقيدتهم حرفت، والصوفية أهل بدعة، وغير هؤلاء وثنيون.
- من أنت لتنكر على الناس إيمانهم؟

عندما احتدم النقاش تدخلت "ببا" سريعاً لفض الاشتباك حتى لا تصير مبارزة الكلمات مبارزة بين بتارٍ وحسام والتي كانت تتابع حديثهما دون مشاركة

- تفضلا فستق محمص ورائع من عند طرطوسية

تبسم أحمد وأخذ بعضاً منه معلقاً:

- الفستق جميل طبعاً لكنه أحلى ونحن نسير على البحر في محطة الرمل وبين المحلات في انتظار ميعاد السينما

رد "عسَّاف" على كلام أحمد الهجومي، ولم يعلق على الفستق

- لم أنكر شيء ولكن بنص القرآن . الدين عند الله الإسلام . ولا أعترف بدين آخر غيره..
- ليس مطلوباً منك أن تعترف به أو لا تعترف، ولكن نحترم ما يعتقد الآخر، فهو اتبع سبيلاً غير سبيلك وكان مقصده الله أيضاً، حتى لو كان ديناً وضعياً وليس سماويا فجميعهم ينشدون الله
- وهل اتخذت أنت سبيلاً آخر إلى الله؟

كان سؤاله فيه كثير من الخبث، يتهمه بتحوله لدين آخر أي الكفر، وكان أحمد يفطن ذلك فرد بما يشفي السؤال

- أنا أعبد إله بعث لنا محمد رسولا وأنزل لنا قرآناً كان وحده إعجازاً
- ظننتك تحولت لطريق آخر، فلم كل هذا الخلاف والاختلاف إذن؟
- الخلاف في أنفسنا نحن، أما الاختلاف في الرؤيا والتفسير، فهو رحمة، ولكن العقول المقولبة فقط ترفض ثقافة الاختلاف، وتفتقد

الإبداع والاجتهاد، بل تخشى حتى أن تفكر وتختلف، فهي جاهزة فقط للتلقين والحفظ..

ظل "عسَّاف" يأمل إنهاء الحديث لشعوره بأن أحمد يقصده هو بالعقول المقولبة، ويكمل:

- تعرف لما هذه النظرة الأحادية؟

رفع "عسَّاف" طرفه إليه على مضض، بديلاً عن الكلام، فأكمل أحمد:

- لأن مصدر معلوماتنا واحد، فقط هو المسجد، لقد اختزلت كل مؤسسات الدولة في المساجد والزوايا، صارت بديلاً عن وزارة الثقافة والتعليم حتى بديلاً عن الشئون الاجتماعية والشباب والرياضة وكذلك قد تكون هيئة قضائية مستقلة، ربما هذا السبب جعل نظرتنا أحادية.

صمت "عسَّاف"، وظل يسمع فقط حتى كف أحمد وأنهى حديثه، فسحب "عسَّاف" سجادة الصلاة سريعاً كأنه يفر متوجهاً للقبلة.

الفصل الثالث عشر

اصطحبت "فريدة" ابنتها رفيدة ذاهبة لزوجها في عمله، مرت بالمقهى أسفل المنزل استوقفتها زوجة "النجرو" قبلت رفيدة، وسألت "فريدة" بخبث عن "عسَّاف"، كانت أعين "النجرو" تتابع حديثهما من داخل المقهى، تريد زوجته أن تقول لها أنه تركها وتزوج عليها، تريد أن ترى غيظها وقهرها، فلم تنس خلافاتهم القديمة، التي كانت هي سببها، أخفت "فريدة" حُنقها وسُخطها عليها وعلى زوجها وحاولت أن تظهر وداً أكثر فهي لم ترغب في أن تحاط بالصراعات من كل تجاه وكفى ما هي فيه، تصنعت ابتسامة وقالت:

- لقد سافر القاهرة لاجتماع الجمعية العمومية هناك وسيعود خلال الأسبوع
- في القاهرة؟.. إسلام ابني رآه ليلة أمس في محطة الرمل وكانت معه سيدة ربما تكون أخته لأنها تشبهه وكانت يدها في يده.
- لا، ربما أحد غيره
- أحد غيره! وهل إسلام يتوه عن الأستاذ "عسَّاف"؟

أنهت "فريدة" الكلام متبرمة تكاد تشتعل، تركتها وذهبت إلى حيث وجهتها. من أول البوابة الكبيرة للشركة هاجت وماجت، شكته لزملائه، من كان عدواً له ومن كان صديقاً جرسته

- تزوج، ولا يريد طلاقي، ولا الإنفاق على أولاده، ولا أعرف ماذا أفعل معه وماذا سيكون مصيري ومصير أولادي

اصطحبها أمن البوابة وبعض الزملاء إلى مكتبه وهم يواسونها، وأمام المكاتب والتفاف الزملاء حولها بكت، سبته، هم بضربها عدة مرات، وفى كل مرة يمنعه الزملاء إلى أن اقترح أحدهم بأن يتركهما وحدهما ربما يجدون حلاً لمصلحة الأولاد، قدموا لها كوباً من الينسون في مكتبه وتركوهما سوياً، همست له وهي تقرض أنيابها وتمد وجهها من مقعدها أمام المكتب نصب وجهه

- لماذا تزوجت؟.. هذا جزاء صبري على عجزك؟.. ألم يكفيك أنى أعيش مع نصف رجل منذ جراحة ظهرك، ألا يكفيك ما تحملته من خيانتك لي مراراً، ونزواتك التي لا تنتهي رغم عنتك
- تأدبي، وتكلمي باحترام أكثر أمام ابنتك التي تشاهد عتهك.
- هي أجمل منى؟
- نعم أجمل وأصغر وأعقل.
- قانعة بهذا النصف؟! وأنت.. لم تفكر بي؟! عمري الذي ضاع معك، ألست بشراً ولى ما لك؟! امرأتان؟! أنت تتزوج امرأتين؟! وأنت لا تشبع نصف امرأة.
- لا لن يكونا امرأتين لأنني طلقتك.

- طلقتني!.. وكل ما لديك الآن بنيته أنا وهو ملكي وملك أولادي، وعمري .... رد لي ما ضاع من عمري معك أنت لا تستحقه..
- كفاك طمعاً ، وهل اشتريتني عبداً لك ولأهلك؟
- طمعاً.. لقد أخذتني فتاة صغيرة أملك الدنيا بيدي وتتركني الآن مكبلة بأولادك ونزف جراحك وتقول طمع
- أنا لم آخذ منك أكثر من أي زوج أخذ من زوجته، أما أنت استغللت شبابي وثروتي واسمي لخدمتك وخدمة أهلك.
- وهل أنت قدمت أكثر مما يقدم أي زوج؟، أتريد أن أدفع لك ثمن لقاءاتنا الزوجية؟ وقد أعطيتك الثمن، أولاداً وبيتاً هادئاً هذا لا يكفي؟ أتريد كم لنطفتك النجسة؟
- أنت امرأة سليطة ينقصك الكثير من الأدب، لم يهمك أن تسمع ابنتك الطفلة قلة حيائك هذا.

تبصق على الأرض في اتجاهه معلنة الحرب.

أمينة زميلته تملأ عينيها الشماتة، تستقبلها في مكتبها، تريد لهما المزيد من الفضائح والمصائب، فهي ربما كانت أولى النساء اللاتي تضررن منه، فقد أضاع عليها كل فرصة للزواج، بوعوده لها وبأنهما سيكونان أسعد زوجين، فكانت أمه تحبها وتفضلها على الأخريات، وهي تكبره ببضعة أعوام، وكذلك منصبها، بل ويزداد يوماً بعد يوم كان فخوراً بمكانتها الأدبية،كانت تعود معه كل يوم إلى بيت أمه، واثقة من زواجه منها فلا تخشى لومة لائم،

فكم قضت الوقت في بيتهم، وحينما قرر الزواج، كانت "فريدة"، رغم رفض أمه التي كانت تريد له أمينة، وقد قامت أمينة على الفور بالإصلاح بينهما، فصارت تنفخ في الكير وتبث لكليهما أين الضربة التي تقسم الآخر، ورغم أنهما يعرفان ذلك فليس أمامهما سوى المضي لنهاية الحرب المعلنة.

تحمل "فريدة" معها أنغام الأغاني المنبعثة من مقهى "النجرو" التي تستقبلها منذ دخولها الشارع، تواسيها تصعد معها شقتها، وقد قررت حينها نزع نقابها ليعلم الجميع أن زواجه ما هو إلا فراغه عين ونفس دنيئة وليس لعيب فيها، بل لا تزال تحتفظ بأنوثتها وجمالها. لقد ارتدته لتكون أكثر تقوى من الأخريات وعلى وجه الأخص شقيقته التي تتعالى عليها بالتقوى والحسب والنسب.

كانت "فريدة" تعلم أنه لم يعد للحب مكان بينهما، بعد أن وقف هو على أنقاضه، ليرسم طريقاً جديداً لحبٍ جديد، وهل يمهله العمر ليعيش لها قدر ما عاش لي ومعي؟ وأي نهر سينهل منه قوة وعزماً ليعشق بنفس عنفوان عشقه لي، لا لم يكن هذا حباً، بل هو يترنح، لابد وأن تكون نزوة، وهل الخديج كالطفل والناقص كالكامل؟ أنا مازلت فاتنة، مازلت الفتاة الصغيرة التي كانت تعمل في شباك التذاكر والتي كم عشقتها قلوب، وما زادني العمر إلا فتنة وجمالاً وهو يعلم ذلك، حتى وإن صرت أكثر بدانة ولكن هو يحب البدينات ولا يجد في ذلك نقصا، المهم الآن ألا أدع غيري تجني ما زرعته.

لم يكن هناك أي شئ يغني عنه هو، عن وجوده بثُقل جسده وكيانه، ولم يكن صوته كافياً لتحيا في صداه، بل لابد أن يملأ المكان حضورا، يحمل جسدها شذاه، فهي لا تحبه نصف وجود، ولا تحب أن تحيا في لذكرى ولا من باتوا أشباحاً، تريد أن لا تمحو بصمته أبداً ولا تغيب لتظل له زوجة وفية، بل تظل بصمته فوق كل شئ هناك، حاضرة على الدوام، وكم من أوقاتٍ مرت دون تلك البصمة، حتى تأججت نيران قلبها، دارت عينيها وجالت في خزانته، يكاد شررها يقدح النيران في البيت والخزانة، أفرغت ما بها، مزقت ماله من ملابس لديها، بدأت تمزق أوصاله تشيعه إلى قبره، وفي مكتبه فتح الحقيبة التي أرسلتها، ليجد جثمانه ممددا داخلها.

استحوذ الدوار على رأسه أياماً، وفتك بمعدته الألم، يمنِّي نفسه برحيلها، صار مجرد رؤيتها شيئا ثقيلا على نفسه، فهي كفيلة بتكدير أيامه وتنغيص حياته، اليوم مر قرابة الساعتين وأكثر لم يخرج من مكتبه، يفكر كيف يكون الخلاص، كلما أتى أحداً إلي مكتبه وجد بابه موصداً، ظن عدم وجوده، وبعد وقت ليس بقليل عاد كمقبور أعاده تواً للحياة، تذكر.. اليوم موعد الاجتماع المحدد سلفاً للتحكيم بين الخصمين: هو و"فريدة"، سيسمع صوتها ويرى صورتها، وعليه أن يكون حكيماً وإلا يظهر عداوة تجاهها.

وتسفر الاجتماعات والمناورات التي باءت أغلبها بالفشل عن قبولها العودة في ظل وجود الأخرى، كما تقبلته "ببا" أيضاً على مضضٍ إرضاءً له. ارتدت "فريدة" قميص نوم أصفر وقالت:

- ارتديت لك ما يعبر عن حالي، يقولون الأصفر للغيرة، وأنا مازلت أحبك وأغار عليك

تبسم.. قال:

- دائماً جميلة أنتِ، في كل الألوان
- حقيقي؟ ولماذا تركتني ما دمت تراني جميلة
- أنا ما تركتك، ولكنها أفعالك..
- أكنت تقبل تلك المرأة؟
- ليست تلك المرأة، إنها زوجتي، مثلك تماماً

تغير صوتها واحتدت نبراته وتبدل وجهها

- لا تقل زوجتي
- بل هي زوجتي وأحبها كما كنت أحبك
- كنت تحبني
- أقصد كما أحبك تماماً

تأججت نيرانها وانتصبت من اضطجاعها جواره، دارت حوله وهو لازال قابعاً في سريرهما، سألته بصوت حائر بدا خافتاً

- كيف تلمسها؟ قل لي، تقبلها مثلما تقبلني؟ إنها تقبلك كتقبيل الفلاحات؟ هي فلاحة كما أراد لك أبوك؟ أليس كذلك؟

يحدق في حركاتها حوله، وتكمل بنفس العصبية والقهر

- قل لي.. تحتويها بذراعيك في نومك كما تفعل معي؟ تنيمها الليل علي ساعديك كما أنام أنا؟ تفعل معها كل ما تفعله معي؟.. تقول لها أحبك؟

تنحني نحوه ثم تقف منتصبة، تصرخ في وجهه

- أجبني، لم تنظر إليّ هكذا، مجنونة أنا؟

ضربته بكلتا يديها في صدره، قفز واقفاً واحتضنها، ركلته بقدميها في قدمه، وهو لا يزال يحتضنها، يضمها أكثر، طالباً أن تتقبل الوضع الجديد، حيث أنه لم يخالف شرع الله.

كان قبولها العودة خطة لإفساد حياته الجديدة، مثلما أفسد هو حياتها، وكما يفعل تماماً وبنفس سلاحه، ومن كأسه يشرب، ألا وهو سيف الحرام والحلال، وما يجوز ولا يجوز فكانت تطلبه في الليلة أكثر من مرة، برغم عنته وعدم قدرته، وإن لم يرغب أخذته عنوة، فلا يتلفظ أو يتململ، وإلا افتعلت نزاعاً اتهمته بالتقصير في الإنفاق والحب والحقوق الزوجية، ليدخره لزوجته الأخرى، ولم يعدل بينهما، أو فضح أمر عجزه.

أذعن لها، بات شبحاً، لم يعد لديه سوى ابتسامة شاحبة لا تنم إلا عن حزن كبير، يقضى يومه لدى "ببا" في نوم ثبات كأنه الموت، حتى

يطيق أعباء "فريدة"، فهي تنتظره في أيامها ليأخذها للتنزه، وفى الليل يغتصب رغم أنفه، مستسلماً لا يستطيع الرفض أو الاعتراض.

وفى أحد المرات بعد اغتصابها له، سألته:

- قل لي يا عبد الله مع من تستمتع.. معي أم معها؟

بدا كأنه لم يسمعها

- أتذكرين الرجل الذي استأصل عضوه بشفرة الحلاقة، ماذا لو فعلتها؟

الفصل الرابع عشر

صارت "فريدة" تتفنن في تكديره وانتزاعه من عند "بيا" لأي سبب، يوماً تصرخ

- ابني يموت، حرارته تخطت التاسعة والثلاثين..

ويوم آخر تريد إسعاف أحد أبنائها سريعاً قبل انفجار الزائدة الدودية، ويوم ثالث لقد كادت تصدمه سيارة، تفتعل المشكلات مع الآخرين هي والمراهقين فلا يهنئ "عسَّاف" ليلة دون مصائب، حتى هذا اليوم الذي حدثت مع ولديه معركة كبيرة على شاطئ الأنفوشي، كان معهم بعض أصدقائهم من أبناء الإخوة، وكبرت المشاجرة حتى حسمتها ظهور الأسلحة النارية وقد سبقها معركة بأعمدة الشماسي، هرول "عسَّاف" مخطوفاً معه كثير من الإخوة منهم من يتقن التقاتل ومنهم لا يملك سوى الحكمة المشوبة بالحذر وهناك أُخرج كل ما تعلمونه من فنون قتال، وبعد موقعة الأنفوشي تلك عاد بالمراهقين جريحين أقرب إلى الموت. حاول بعد تلك المشاجرة أن يقترب منهما لرأب الصدع الذي أصاب علاقته بهما من وقت بعيد، يجالسهما من حين لآخر، مرغماً تأبى نفسه ذلك، محاولاً فقط ألا يصير الأب مصروعاً في البيت، كان هناك شيء ما في نفسه يكبر مع بلوغهما، حتى صار شعور الأبوة تجاههما يتضاءل وتنمو مشاعر أخرى، يصارع نفسه ليل نهار لا فائدة، ربما كانت هذه المشاعر هي الحائط المنيع

بينه وبين "فريدة" كأنهما عاشقين لها أخذاها منه قسراً،كيف تحول تجاههما وهو الذي ذبح بقدومهما الذبائح وتلقى لأجلهما التهاني،كيف عصفت الريح بتلك المشاعر، لتتملكه العدائية، كان يدعي أن "فريدة" سببا فيه، رغم أنه يعلم أن ذلك الشعور كان ينمو داخله منذ زمن ليس بقريب .

بعد تردد ومكابدة نفسه والتغلب عليها، ولج غرفتهما عبوراً فوق كثير من الحواجز والمتاريس المتراكمة داخله، وقد وجد يحي يقرأ كتاباً و"صهيب" يشاهد مباراة للمصارعة الحرة، ألقى عليهما السلام باشاً، كان أيضاً كلاهما يكابد نفسه، كانت تصلهما مشاعره كسقوط الحجر في الماء الراكد، يثرثر مع "صهيب" بشأن المصارعة وأبطالها البارعين فيها ثم يسألهما

- وماذا عن تدريبكما مع الأخ عبد الستار؟

رد "صهيب" بغرور

- سنكتسح إن شاء الله، لأنه بعد كل هذا التدريب لابد من الاكتساح
- إن شاء الله... إنه يقول لن تخرج ميداليات بطولة الجمهورية في الكنغو فو من وحوشه وعلى رأسهم أنتما

أما يحي كان يرد بشيء من الحكمة:

- لا لسنا وحدنا وحوشاً، أولاد الأخ يوسف وحوش أيضاً
- ولكن أبيهم ليس بطلاً، بينما أنتم من كان أبيكم؟ لقد كان بطلاً كبيراً سواء في المصارعة أو رفع الأثقال، نعم هي لعبة مختلفة ولكن

كان متميزاً في لعبته حصد الكثير من الميداليات، فيجب أن تكونا أبطالاً أكثر منه

علق "صهيب" وهو يتحسس ذراعيه المفتولين

- وسنكون كذلك إن شاء الله

أدار "عسَّاف" وجهه تجاه يحيى قائلاً:

- ماذا تقرأ يا يحيى؟
- أقرأ مذكرات الإمام
- أول مرة تقرأها؟
- لا، قرأتها أكثر من مرة
- عظيم لعلك انتفعت بها؟
- نعم.. في كل مرة أرى شيئاً جديداً

ثم استطرد قائلاً:

- بابا.. لقد سمعت أن بالسعودية مؤسسات أو أفراد لست أدري، كانت ترسل لمن يحتاج الكتب الدينية والفقهية حتى المنزل دون مقابل، ذلك في الثمانينات أهذا كان صحيحا؟
- نعم كان يحدث ذلك ولا يزال، حتى لا تكون عدم القدرة المادية حائلاً بين المعرفة والتبحر في علوم الدين، وكان مردود ذلك هو إخراج جيل أكثر تديناً وفقهاً من سابقيه، وهو مردود جلي لا ينكر، فلم تمر بلادنا من قرون وربما منذ الفتح بهذه الصحوة، فهي

بمثابة ميلاداً جديداً للدعوة، فلكل زمان رجال تجدد للأمة دينها، وقد ظهر رجال كثر بفضل ذلك، أن السعودية ومصر بهما أناس تعمل على تعضيد الإسلام ونشره، لمجابهة ما أسموه بالثقافة والفن، الخلاعة، حيث نستشعر منهما خطراً حقيقياً يتربص بهذا الدين، فدائما هما في تزاحم في قلب المرء ليحل أحدهم محل الآخر لأنه لا يحمل المرء قلبين أحدهما للهزل والآخر للجد.

ظل "صهيب" منتبهاً لتلك المباراة، منصرفاً قليلاً عن الحديث، بينما كان يحي ينصت باهتمام، فيقص له موقفاً من المدرسة..

- لقد قال لنا مدرس أن أثر التنويريين على الدعوة عظيم، حيث التطوير والرؤية التي تتناسب مع العصر الحديث
- التنويريون؟ يقصد من؟
- الإمام محمد عبده، وجمال الدين الأفغاني، وقاسم أمين، وهدى شعراوي، ثم تلاهم طه حسين الذي تتلمذ على أيدي بعضهم
- والله يا يحي كل هؤلاء أس الفساد كما عرفنا من علمائنا، هدى شعراوي مثلاً دعت النساء للسفور والفجور، ومحمد عبده علماني كان يدعو لمدنيّة الدولة ودحر الدين يريدونها علمانية كافرة، والأفغاني عليه كثير من المآخذ والتي تجعله على النقيض تماماً، أما طه حسين تقول عنه مشايخنا أنه كافر وزنديق عفاك الله يا بني، كان الأجدر به أن يحدثكم عن رشيد رضا مثلاً الذي له

إسهامات كثيرة في خدمة الدعوة طالما أن حسن البنا وسيد قطب لم يستطيعوا حتى ذكر أسمائهم في كتبكم ومدارسكم تلك، بل هما أصحاب الفضل الأعظم في الحقيقة واستشهدوا في سبيلها.

اشترك "صهيب" في الحديث دون اكتراث:

- ولكن يحيى لم يقل لك أن الأستاذ شرف جميل المحيا كما تعلم أنه مدرس الفيزياء في مدرستنا
- نعم أعلم أكيد
- هو دائم الدخول في نقاش حاد مع هذا المدرس بشأن آرائه تلك وتبنيه ما ورد في كتبنا من تضليل وقد أفحمه كثيراً أمامنا فقال له ذات مرة أن العلماني لديكم تنويري وشاربي الخمر مجددون، والله لقد سئمنا هذا اللبس والبهتان

علق "عسَّاف":

- والله صدق الأخ شرف، أبلغوه تحياتي إلى أن أراه في اجتماع الأستاذ في البيت الكبير، تصبحون على خير، يجب أن تناما الآن فلديكما (ماراثون) باكراً، السلام عليكم
- وعليكم السلام بابا

في الصباح التالي لتلك الليلة سينطلق (ماراثون) من كورنيش المنتزه حتى قلعة قايتباي ببحري، نظمته ودعت إليه الجماعة، كان "عسَّاف" ينتظر بزوغ الصباح بفارغ الصبر. قام بتوصيلهما، ثم تركهما وعاد إلى "ببا"

متلهفاً، يمزقه الاشتياق، حمل بين ذراعيه باقة زهر صغيرة وبين جوانحه شوكته المنسوجة بالشوق، حتى كاد أن يضع كفه نصب قلبه لتخرج مخضبةٍ بدماه

الفصل الخامس عشر

بات "عسَّاف" ممزقاً بين هنا وهناك وبين ما يريده قلبه وعقله وما يفرضه عليه الواقع، متوتراً يأكل بنهم، وينام كالأموات، قام بعمل بعض الفحوصات الطبية التي أكدت أصابته بمرض السكر، كان ذلك صاعقة زلزلت "ببا" أمست تبكي لأجله تختنق، يضيق صدرها، أصابها الحزن بصعوبة في التنفس، وضعها الطبيب على جهاز لتوسعة الشعب الهوائية، وبعد مرور قرابة الأسبوع واستعادة قوتها، سافرا الساحل الشمالي للاستجمام بإحدى المنتجعات، وقد طوقها ذراعه في مواجهة البحر همس لها:

- ألا تغارين من "فريدة"؟
- ولا من نساء العالم، أعلم قدري عندك، وأعلم أيضاً لن تحبك امرأة أكثر مني، ولو أسعدتك غيري تنحيت أنا على الفور
- هذا كلام غريب لم أسمع به من قبل، يقولون الغيرة لشدة الحب
- ليس دائما.. هناك غيرة للتملك وغيرة الشركاء خشية أن يربح أحدهما أكثر من الآخر، وربما هناك أنواع أخرى كثيرة من الغيرة
- ولما تغار "فريدة" إلى حد تدمير كل شئ حتى نفسها وأولادها
- ولكني أحبك أكثر من غيرتي عليك
- كأنك زاهدة في....

- وهل كثرة السالكين سبل العشق إلى الحبيب، يُزهد العاشق في حبيبه؟
- كلامك يجعلني أتحير، أنا أغار عليكِ بجنون
- لأنك لم تحبني أكثر من نفسك، لن تؤثرني عليها، فإذا حدث ذلك تأكد أنك لن تعد تثور غيرتك العارمة هذه، بل تخاف عليَّ كثيراً، تحتويني كاحتواء أضلعك لرئتيك هاتين، دون أن تصير لي قضباناً وقيداً.

بينما هما في قاعة الطعام لتناول غدائهما، كانت "فريدة" في الإسكندرية تتمزق لقد غاب عنها "عسَّاف" ولم يعد، طلعت شمس ذلك النهار طعنت الليل ذبحته على أعتاب نهار أحلك منه وأشد قسوة، فاض بها الكيل انهالت فوق الأثاث تكسيراً وصراخاً، طلبته على هاتفه ربما للمرة المائة، صارت ترتعد، أخيراً رد عليها وقد ملأ صوته السكينة والهدوء، سرى عبر الهاتف إحدى مقطوعات الثلاثي جبران المنبعثة من قاعة الطعام

- خيراً، ماذا حدث؟ الأولاد بخير؟
- نعم أولادك بخير، أنا التي أموت كل يوم، لابد أن تأتي لنا حالاً
- كيف أجيء حالاً ونحن في سفر؟
- تسافر دون علمنا، وإذا حدث لنا مكروه ماذا تفعل؟
- والحمد لله لم يحدث شيء، ثم أنني كم سافرت مع الإخوة ولم يحدث شيء، فلما هذه المرة سيحدث لكم مكروه؟

- لكن لابد أن تأتي حالاً وإلا سأحرق البيت بمن فيه، أقتل نفسي وأولادك

- لابد أنك جُننتِ، إن أردتِ أن تقتليهم فاقتليهم هم أولادك أيضاً

سمعت "ببا" وهي تقول له:

- طلبت لك أسماكاً حبيبي؟

صرخت في جنون:

- إنها تدعوك حبيبي، الله يأخذك ويأخذها

أنهى رحلته وعاد إليها حانقاً، أصرت أن تذهب إلى المكان الذي كانت به "ببا"، لم يكن أمامه سوى أن يلبي طلبها، مكثوا عدة أيام حاولت خلالها ألا يتصل بـ "ببا"، حاصرته هي والمراهقون، حتى بات مغلوباً على أمره، كان يرى في أعينهما ما لا يحمد عقباه، وتوالت محاصرته، حتى بعد العودة.

وفي محاولة "فريدة" لإحكام خطة الحصار، شرد ذهنها في أن تكون أكثر إحكاما، صار بالكاد يذهب لـ "ببا" في أيامها ثم يقتلع من عندها لأسباب شتى من صنيع "فريدة"، التي صارت تفكر في الأمر كثيراً فلم تر ما أسفل قدميها، تأكل قلبها نيران الغيرة والانتقام، بدا حقدها جسماً مطاطياً عندما دفعته نحوه ليصيبه ارتد إليها على الفور فسقطت، وانزلقت إحدى قدميها في سلم العمارة لتهوي، صرخت وتعلقت في عنق "عسَّاف" حملها

إلى الشقة وانشغل في تضميد ساقها وانصراف طبيبها وتأوهات وشكوى آلامها، كانت هذه فرصة لغلق أبواب الزنزانة على حصانه الجامح.

الفصل السادس عشر

باتت "ببا" تحاط بكل أسباب القهر وسط تلك المناورات والمشاحنات، تغلق عليها الدائرة، تشعر بالخزي والعار تجاه هذا الحمل كأنه سفاح، لا تدري لم تملكها ذلك الشعور، كل ما تعرفه هو أن الأب غير عابئ به ولا بها، فهو فقط في صراع مستمر بين منتصر ومهزوم، بينما هي تنهشها أفكار ضارية. تعاودها الكوابيس التي كانت قد توارت منذ سنوات بزواجهما، فأنفاسه كانت سياطاً تطارد كوابيسها ولم تعد تطل منذ ذلك الحين، حتى عاودتها الآن، كان كابوساً عملاقاً أفعوانيا يلفها داخله يوثقها بألف وثاق، ولا يتركها إلا وشارفت على الزفرة الأخيرة. كانت تظن أنه مات كالبشر أو رحل بغير رجعة إلا أنه عاد. كانت تود أن تتخفف من الحياة التي صارت بدونه ثقيلة

تصارع فكرة التخفف من كل شيء، هناك ما يلح بإفراغ حشاها وعشقها الوليد، وإفراغ رأسها من "عسَّاف" وحبه، التخفف من الحياة نفسها فتصارع موتها كل ليلة، يشعل وجدانها الشوق للوجه الجديد، لتملأ عينيها بسنا محياه، ولكن كيف تلد طفلاً يشعر أن أباه لفظه خارج اهتماماته، يحزنه جفاؤه ويقهره تجاهله، وإن لم يكن متعمداً ذلك.

هي ليس من شيمها الاقتناص والجبر، ولا من تنجب من زوجٍ أدار لها ظهره، تلد ابناً مكشوفاً للعراء، دون سند دون أبً يملأ عينيه، يكون له السماء، يأتي له بالأنجم تاجاً تتلألأ فوق جبينه، حارساً وراعياً له وحده.

كان قرار الإجهاض هو انتحارها، تقطع بأظافرها المشحوذة وريداً بالعنق، قاسية كثيراً على نفسها، وبدلاً من شحذ تلك الأظافر لحماية نفسها وجنينها كانت قاتلهما.

بغرفة تنخفض كثيراً عن السطح، ربما تحت الأرض، هي بيت للفجور كما قيل، وإن لم يكن به أي شيء يدل عليه، ولا يوجد في البيت سوى تلك الغرفة، التي كانت أرضيتها طيناً جافاً، ولم يكن بها شيء من الأثاث سوى أريكة قديمة أذاب السوس صلابتها، وبعض السيدات اللاتي تخدمن في ذلك البيت الطيني والذي في عمقه تقبع تلك الغرفة، رجلين أحدهما فوق الأريكة والآخر أسفلها، عندما دلفت إليهم تعلقت في بابها ذات المصرع والمشبوح فوق منخفض الغرفة العميق، دارت به كالأرجوحة، قفزت داخلها، قبعت في الأريكة جوار ذلك الرجل، صارت تدخن سيجارتها وتشرب شيئاً كان في الكأس، ربما كان عصيراً يقال عنه خمراً، بل لا يمت للخمر إلا بالكأس، كان جميعهم في ألفة شديدة، كما لو أن بينهم ألف ميثاق، ولم تربطهم المنادمة فقط، يركض فجأة الرجل القابع جوارها فوق الأريكة، يخلو بثلاث فتيات صغيرات يحدثهن في شيء ما، بدا سراً، يجيبونه

- نعم كان هناك

كانت تعدو خلفه بنفس سرعته، ربما أخبرها أو حدّثها بشيء، ودون أن تسمع حديثهم صكت صدرها بيدها، قالت لهن في هلع

- ابني أنا؟

قالت إحداهن

- نعم صدمته السيارة وتكوم هكذا

واصفة بيدها شكل التكوم والاستدارة، شق قلبها سكيناً ماضياً، صرخت وصرخ صوتاً داخل رأسها كالصدى، ركضت كالمجذوب، كالذئاب في الفلاة القاصية.

يلفظها الفراش تقبع وحيدة أمام التلفاز ولا شيء سوى تكرار بلا معنى، بينما كانت السبل تغلق جميعاً أمامها، كان "عسَّاف" هناك متخما بصراعات لا تنتهي، ترى صورته في الفراغ حولها وفي الوجوه العابرة في الطريق، تراه خانعاً متواطئا، يجبن في الشدائد ويلوذ بالفرار.

تدبر الأمر ولكنها مازالت في لجة التفكير بين وبين، الواقع والحلم.. عقدت العزم وأعدت العدة بارتكابه، ذهبت للطبيب بمفردها تحاط بوحدتها والاغتراب، تحمل عبئا أحدب عودها المنتصب، وتحمل جسدها ثقلاً في حقيبتها، مرغماً يأبى المجيء ولكنه قسراً جاء.

أدخلتها غرفة العمليات سيدة تعمل لدى الطبيب، صفراء اللون قصيرة القامة في عقدها الخامس، كانت "ببا" تحملق في سقف الغرفة شديد

البياض وهي مستلقية تهيئاً للبدء، كان بعيداً وعميقاً كأنما تنظر في بئر أو تسقط فيه. أخذت حقنة المخدر مستسلمة لقدرها وراحت تندفع داخل أنبوب أبيض حلزوني بلون الثلج، تندفع فيه بأقصى سرعة، لا تعرف ما يدفعها، تصدر صرخات تدوي داخل الأنبوب، يعود صداها يصم أذنيها، صرخات الذئبة داخلها، لا أحد هناك سواها، ولا ترى سوى الأنبوب الحلزوني والقوة الدافعة فيه، لا تشعر بأن لها ثُقلاً، لا تعلم كم مر من الوقت ولكنه كان بطول الدهر.. يفيقها الطبيب، تحمل الجسد المنهك والرفات، تسير والأرض أمامها أفواه جائعة جاهزة للالتهام.

عادت فراشها دونه، برئت أحشاءها منه، كما لو كانت تبرأ من ذنب اقترفته، تحمل لفافة قطن صغيرة أودعت داخلها رفاته، كفنه الصغير يحمل الجثمانين، ويستوعب الرفات جميعهاً حلماً وحباً وكل العمر ما هو ماضٍ وما هو آت، فقد أنهت مهمتها الصعبة واكتملت أركان الجريمة، تفيض عيناها مجرى من حميم، ينسكب فوق اللفافة، تلامس شفتيها، تقبلها، تضعها فوق الوسادة نصب عينيها، تدسها في خزانتها وتتوالى لياليها الحالكة.

يضم صدرها الفراغ وقلبها الخواء، تقبض بكفها رحمها الخاوي، يزداد اللهيب بظلام الليل، أوقد كل ما أحاط بها ومرقدها، هوى فيه شهاباً، صار فراشها بوتقة لانصهارها بالشهب، فتحت شرفتها تستغيث

من نيران تحلقت حولها، هجير من السَحَر لف هامتها، رفعت وجهها للسماء، صرخت في وجه النجوم، صرخة مكتومة، صرخة الذئبة داخلها.

نافذتها تُفتح ناحية بزوغ الشمس وهجوم الليل ناحية ميلاد كل شيء: الحياة والموت، يطالع وجهها من تلك النافذة على الميادين كما القابلة للصباح وللمساء، بينما يكون لحادا له وحده.

تهاجمها وحوش ضارية . آلهة العقاب . لهم جميعاً وجه طفل، وعيونهم أبار حالكة..

– أنا جايا... ربة الأرباب.. في البدء أنجبت أنا السماء وكانت زوجي، تقمن أنتن لأمري وتسكنن الأشجار لأمري، كنت وكنت.

تقع من الإجهاد ثم تنتصب من جديد تحاول الابتعاد يطاردونها تحجب أجنحتهم السماء التي كانت تموج بسحاب بلون الدم، صدى صوتهم كالصواعق يأتي من كل اتجاه، تركض مرتعبة وهم خلفها، تسقط لتكون أسفل قوائمهم، وتسقط من سريرها أيضاً فوق بركة نزيفها.

وفي سرير الإفاقة بالمستشفى يخر "عسَّاف" تحت قدميها باكياً، كان لديه شعور أنه المسئول عما حدث، ولكن هيهات أن يقوله أو يعترف به، فقط يريح نفسه يحمِّل "فريدة" وحدها سبب كل شيء.

قال لها ذات مرة أنها لن تدخل معه الجنة، بينما ستكون معه زوجته الأخرى لأنها تسير مثله على درب الجماعة، وهي الأقرب إليه من كل نساء العالم . فقط لهذا السبب دون غيره . فهي أخته في الدعوة، ويهب

لنجدتها في أي وقت تطلب ذلك، ولو لم تكن زوجته في أي وقت مضى، فكفى ما بينهما من تلك الأخوة، التي قد تكون أقوى وأمتن من رابطة الزواج وصلات الأرحام والدم.

كان ذلك جُرحاً لـ "ببا" عميقا، وربما كان أحد الأسباب التي دفعتها فيما أقدمت عليه، فمهما كانت العلاقة بينهما، ومهما كان عشقهما، ستظل الجماعة وكل من كان منتميا إليها له السبق في وجدانه وعقله.

عاد من عندها بالمستشفى مهزوماً، طاف داخل بيتهما كمزار أو كما لو كان يرفع بصماتٍ من مسرح جريمة قد ارتكبت، ينظر في كوب المياه وأثر شفتيها فوق حافته، يقف كما كانت تقف أمام الموقد، يجلس أمام المرآة يراها هي، يطوف حول سريرها.. يتشمم ملابسها الملقاة فوقه، يتشمم وسادتها يذوب في عبق ذلك الجسد الممدد غارقاً في بحيرة من الدماء، بدا يتيماً يبيت لأول ليلة بمفرده بعد رحيل أمه.

ألم أقل لك يا أحب النساء ليتني لم أعرف قبلك، ولا غيرك ألم أقل أنهن أخذن عمري هدراً حتى أنت لم تسلمي منهن، وقد أصابك كيدهن.

الفصل السابع عشر

ازدادت نعرة الذكورة في بيت "فريدة"، لم يعد "عسَّاف" هو الذكر الوحيد هناك، بل يوجد من ينافسه، من هو أكثر منه نعرة وأكثر منه حمية واندفاعا، كلما رفع عقيرته ارتفعت كذلك عقيرة "صهيب" ويحيى أكثر منه، كان يخشاهما يرى في عينيهما نظرة متوعدة، فلم يعد يُرفع له صوت وإن فعلها عاد سريعاً في خفوته، لقد ساهم كل شيء هناك في كسره، ولم يعد يطيق العودة لدى غريميه، كان يراهما غريمين يتنافسان معه، ينتزعان منه رجولته يجردونه منها، كلما تشاجر مع أمهما وقفا ولداه في وجهه صخورا صلدة، ورغم أن "عسَّاف" يمتلك القوة البدنية التي تنصره على المراهقين إلا أن ذلك كان يحزنه لدرجة تجعله ينسحب من ساحة المعركة، فالفجوة بينه وبين المراهقين كانت تتسع، يملؤه اليقين أن "فريدة" استطاعت أن تجعل في نحره خنجراً كان يجب أن يتسلح به من غدر الأيام.

يتربص ولداه به يريدان أن يفتكا به قصاصاً لأمهما، ولتدني مكانته لديهما، قد تكون "فريدة" ساهمت في تعميق ذلك الشقاق، ولكن هذا لا ينفي أن بذرته كانت كامنة بأرض خصبة. لا يشفي "فريدة" سوى ذبحه، لم يعد هناك شيء تبقي عليه، حتى نفسها بعد أن جعلهم أضحوكة، سيرتهم يلوكها الكثيرون. وبعد كل ما فعلته في تشديد حصارها عليه هي والمراهقون، ينمو لعلمها من خلال جواسيس من الإخوة مدفوعة منها

بهروبه من عمله في أيامها ليقضي بعض الوقت لدى الأخرى، فتأججت نيران قلبها واهتزت ثقتها في جمالها وأنوثتها أكثر وبمرارة نادته

- يا سيَّاف

التفت إليها في دهشة ثم قال:

- ماذا؟

تشيح وجهها عنه قائلة:

- مؤكد أنك سمعتني
- نعم سمعتك، منذ متى وأنا سيّاف
- منذ خيانتك لي، كنت تبيت في أحضانهن وتغيب عني أياماً، وتتذرع بأنك كنت لدى هشام باشاً في أمن الدولة أو في مهمة خاصة بالجماعة
- أتتهمينني بالكذب؟
- لا.. بل أنت الكذب نفسه يا حبيبي، تقول أنك تعدل بيني وبينها وأنت تذهب إليها كل يوم..
- تتجسسين على زوجك يا شيخة "فريدة"؟
- لشدة مرارتي وقهري منك يا شيخ
- إنني أفعل كل شيء لإرضائك ولكنك حاقدة دائماً
- والله لن أدعك تهنأ بها حتى لو اضطررت لقتلك أو قتل نفسي عليك

- ما عاد شيء يشغلك سوى الانتقام والقتل، امرأة مريضة، ألا تستحي؟.. أولادك صاروا رجالا ولا تزال تشغلك أمور الفراش كفتاة حديثة الزواج
- حقي عندك وسآخذه منك ولو بت جثة عفنة
- امرأة عجوز مثلك لا تزال تبحث عن حق في ماذا؟
- عجوز! أنا وحدي عجوز وأنت مازلت في العشرين.. هههه؟!

تركها وهو يدعو دون تلفظ أن يخلصه الخالق منها.

تعد العشاء مقتضبة حزينة وقد ملأت أنغام موسيقى مقهى "النجرو" أركان البيت.. رمقته بنظرة غاضبة لتعيد الحوار من جديد، تذكره بأن زواجه الثاني كان سببا في إصابته بالسكر، تقول وتعدد محاسنها ومساوئ الأخرى، وهو يسمعها دون شغف أو تعليق، مد يده ليتناول الطعام.. لمحت شيئاً يبرق في إصبعه، التفتت إليه سريعاً

- ما هذا؟ إنه خاتم؟! أنت تلبس خاتم زواج؟!

قال دون اكتراث:

- لقد منحتني إياه "ببا" أصرت عليه
- أتذكر.. لقد خلعت خاتم زواجنا وقلت بدعة، أظن أن عليه اسمها؟
- نعم، هي التي اشترته وكتبت أيضاً عليه
- أرني إياه

خلعه مطاوعاً وبهدوء أعطاها إياه، تفحصته وجدت حروف اسم "ببا" بارزة فيه اصطكت أضراسها غيظاً وبسرعة البرق ألقته من النافذة، ارتفع صوته صائحاً:

- ماذا فعلتِ يا مجنونة؟
- نعم مجنونة، وسأريك كل أنواع الجنون

فصار يضحك، ربما من باب شر البلية ما يضحك، وربما أسعدته غيرتها والصراع عليه، نحّاها بيده من أمامه واتجه مندفعاً للخارج، وتركها لتظل حطباً لنارها.

الفصل الثامن عشر

بعد فترات غياب "عسَّاف" تلك وبعد كل ما مرت به "ببا"، لم تعد تنتظر عودته بل تجاهد نفسها بأن تعيش بدونه، صارت تنتظر خروجه لتخرج هي الأخرى مع رفيقتها، عازمة عدم الاستسلام والانصياع لحبه، ففي اليوم الذي يقضيه لدى "فريدة" تقضيه هي في الخروج مع تلك الرفيقات. بينما يزداد الحصار عليه،كانت تحاط بأحلامها المفزعة، ربما كانت تلك الكوابيس هي سبب حبها الكبير ل"عسَّاف"، كان بوجوده شيطان كوابيسها لا يجرؤ أن يخطو عتبة بابها حتى إذا خرج تمدد بدن مارد ذلك الكابوس بطول البيت وعرضه كالجثة العفنة، فهو ربما معلق بالثريا ليهبط وقتما شاء، فيطمر الغرفة ويطمرها ولا ينفك إلا بجذبة بمقدار قوته، ربما كان يخشى ساعدي "عسَّاف" القويتين لذلك كان يخبو بوجوده.

منذ هذا الصباح الباكر خرجت "ببا" مع رفيقتها ولم تعد، رغم انتصاف الليل، تهرب من حبه الذي جلب لها كثيراً من الحزن والوحدة، لو استطاعت التخلص من ذلك الحب بأي الطرق لفعلت دون تردد، ربما كان إجهاض جنينها أيضاً لذلك الأمر، كانت تجهض حبه، تتخلص من أصفاد عشقه لا من جنينها، كلما رفعت سلاحاً لبتره، بُتر جزء آخر من جوارحها، من فؤادها، من روحها.. تحاول أن تتوه وسط الرفاق، تتوه حتى

عن نفسها، وكلما حاولت فشلت لتسقط في دوَّامته، يبتلعها مركز انجذاب تلك الدوَّامة، تسقط حبة رمل في قاع بحره، أو حبة قمح بين شقي رحاهُ.

في تلك الأثناء كان قد طلَّق "فريدة" للمرة الثالثة، بعد يوم طويل من الشتم والضرب فقد أوسعها ضرباً وتكسيراً للأثاث، وأوسعته شتماً وقذفاً وبصقاً، ثم ألقى عليها يمين الطلاق.. كان ذلك في غياب المراهقين، حيث كانا بأحد معسكرات الإخوة بالصحراء الغربية، ولم يرتح أو يهدأ حتى أتمم الطلاق على يد مسئول التوثيق، عاد إلى "ببا" منكسراً، آملاً في أن يعيد صفاء بكارة أيامهما، ولكنه لم يجدها رغم ذلك الوقت المتأخر، فعاد إلى الشارع سريعاً.. بدأ يدبر قتلها، نقل سيارته بعيداً ثم وقف يتابع المنزل من بعيد وتتابعه أعين المعتوه وصرخاته، لقد نسي كل ما أحطها من ألم، صار يفكر بأشياء أخرى كثيرة.

"كنت أشعر بتغيرها، لابد وأن هناك ما خفي عني، ربما تعرف آخر، لا.. قد تكون مرضت وعند الطبيب الآن"

وكثير من الأسئلة التي تطرح في ذهنه، ولم يمر وقت طويل حتى عادت، كانت معها بعض الصديقات حيث أصرت أن يعدن معها لأنها تقضى الليل وحيدة تقتلها كوابيسها، فملأن البيت صخباً وضجيجاً بينما هي بدت منزوية رغم محاولتها أن تكون في مركز تلك الاحتفالية والثرثرة، كانت تريدهن فقط ليصارعن معها أحلامها المفزعة.

لم تحاول في أي مرة ترك بيتها أن تبيت في بيت أمها الذي لا يبعد كثيراً عن بيتها، علَّ "عسَّاف" يستطيع الهروب ليأتي إليها كالسابق أو يأتي مع صلاة الفجر كما يفعل دوماً عندما يبيت لدى "فريدة"، ظلت هكذا حتى بعد حصاره وعدم قدرته على المجيء، دائما في انتظاره رغم محاولتها محو ذلك الطقس. تناثرت رمال الشاطئ العالقة في أحذيتهن وتناثرت أشياؤهن معلنة عن رحلتهن الشاطئية، يشاهدن أغنية محمد عبده في التلفاز

"**الأماكن كلها مشتاقة لك، والعيون اللى انرسم فيها خيالك، والحنين اللي سرى بروحى وجالك، ما هو بس أنا حبيبي، الأماكن كلها مشتاقة لك**".

هدأت نفس "عسَّاف" برؤيتها مع تلك الصديقات، طرق الباب طرقاً خفيفاً ثم أدار فيه المفتاح، ودون أن يرفع عينيه ألقى عليهن بكلمة السلام، ارتبكت "ببا"، حاولت أن تخفى أثر رحلتها، ولكنها لم تستطع، فوجوههن المحتقنة والأشياء المبعثرة تفضح الأمر، بينما هو تجاهل ذلك كله، بل قبل رأسها بطريقة رسمية روتينية وأبدى ترحابه بهن ثم انزوى في غرفته يفكر.

يرى أن "فريدة" لم تكن له يوماً ولم يكن لها، لم يدر كيف تزوجها، يدور بين حوائط الغرفة، يجلس ثم يقف ثم يجلس، تُدخل "ببا" له عشاءً خفيفا وكوباً من اللبن، تمسح براحتها وجنتيه، تقبلهما، تمرر أنفها بأنفه، تضع قبلة بجفنه المتعب، تعلم أن هناك مشاجرة كالعادة، بينما هو يحيطها بنظراته صامتاً، تحمل عيناه كثيراً من الكلام الذي ربما لا مجال له

الآن، ربما كانت تقول لها: "أنتِ ما تبقى لي، لا أبناء ولا زوجات ولا أحد غيرك، ولا أريد غيرك، تستجديها ألا تجعل "فريدة" تتشفى فيه بأي يوم"، دقائق قليلة معه ثم عادت إلى رفيقتها، تركته في أفكاره.

يصرخ المعتوه "**نجينا يا رب**"

ظل غارقاً فيما هو فيه، يقول في نفسه ليتني أستطيع محو كل ما مضى، "فريدة" وأولادها والجماعة، أعود حراً طليقاً، لتكون "ببا" فقط فهي تتطابق معي كما لو خرجت من صدري، أو صنعتها يداي كما أهوى.

مر وقت قصير وعادت "ببا" لا تطيق تركه وحده حزيناً، ولم تستطع المكوث إليه لوجود تلك الرفيقات، تريد سماع شكواه، تروح عنه، بدا بحر يفصلهما، نادمة على استضافتهن، ضمت رأسه إليها، قبلت موضع انحسار شعره ثم عادت إليهن، تتركه لشروده.

الفصل التاسع عشر

تعرض "عسَّاف" للوم الشديد والتعذير من قبل جماعته، في مكتبهم الرئيسي بشارع صفية زغلول، وفي قاعة الاجتماعات، جلس عيد البحراوي على رأس المائدة و"عسَّاف" على أحد جانبيها جواره وقُبالة مجموعة من الإخوة، لا يشتركون في الحديث ولو بالإيماءة، مشاهدين فقط، كانت جلسة أشبه بالمحاكمة.. قال له البحراوي مقتضباً كما المدرس الصارم:

- نحن لا نلومك على الزواج بأخرى، فهو شرع الله، ولكن كان الأحرى بك أن يكون زواجك من إحدى الأخوات الملتزمات، لها نفس توجهنا، أنت لست رجلاً عادياً من العوام بل أنت أحد رجالنا، صنعناك على أعيننا، ورمزاً لنا، فعندما تريد الزواج تعود إلينا أولاً، نختار نحن لك من تحفظك وتحفظنا، فليس من الحكمة والرشاد أن تدمج فينا امرأة ليست منا، تطلع على أسرارنا، بل وتنال شرف انضمامها لنا، أليس مثلها مثل العوام لا دين ولا مبدأ؟.. لقد عميت أبصاركم وبصائركم، أتساوون الأغيار بالأخيار، أتستبدلون الرموز بالعوام، والله ما كنت ألومك لو كان اختيارك سويا، وما أكثر الفضليات لدينا.

ظل "عسَّاف" يسمع خطبته العصماء تلك حتى توقف فقال له قبل أن يشرع في المزيد

- أنا تزوجت بشرع الله ولم أخرج عن الدين في شئ، وهل تزوجت امرأة سيئة السمعة؟ لا.. بل هي امرأة مثلها مثل الكثيرات في بيوتنا لا تختلف كثيراً عنهن. وهي تحبني وتصون عرضي وأسراري، كما أنني حريص ألا أبوح لها أو لغيرها بأي شيء عن عملنا في الدعوة.
- ومادامت لا تختلف عن الكثيرات فلم تكون هي؟ وهل تُعينك هي في حمل مهامنا الجسام (دعوتنا)؟ طبعاً لا، لأنها لا تراها أصلاً، ثم تقول أنك حريص على ألا تبوح لها، هذا في حالة ما كنت صحيحاً معافاً، ولكن ما الحال أذا أصابك مرض لا قدر الله ولم تع ما تقول، كيف ستكون حريصاً إذن؟ نحن الحريصون على رجالنا فالحرص عليهم واجب وعلى دعوتنا أوجب، وتدريباً لأنفسنا إذا ما وقعت الشدائد التي تعلمها، أم نسيتها ونسيت اسمك ودعوتك وما ظللت تحفظه سنوات عمرك؟
- لا تقلق بهذا الشأن؛ فأنا الضامن لها
- هذا كلام أهوج لم أعهده منك ولا يخرج إلا من العامة لفض المجالس، وهل يصح أن رموزنا تكون زوجاتهم متبرجات سافرت؟
- إنها كانت كذلك، ولكنها ارتدت حجاباً

- حجاب؟ هذا ليس حجابا، بل ارتدت ما يكمل أناقتها، ألم يقل العوام كذلك؟ فأكثر من نصف شعرها خارجه، هذا هو الحجاب الذي تعلمته وتعلمه للعامة يا أستاذ عبد الله؟ وهل أم أولادك ترتدي هذا الحجاب؟

نظر "عسَّاف" إليه ولم يرد

- لماذا لا تنطق؟ قل بل ترتدي النقاب.. ثم إنك تتحدث عن الحب، وأنها تحبك، ما هذا الكلام الفارغ؟ نحن نتزوج ليس للحب وإنما للأسرة والاستقرار، اسمع مني يا سيد عبد الله، إنني أبلغك القرارات التي صدرت بشأنك وليس لي دخل فيها، بل هو قرار صادر من (المكتب) رأساً، أولاً إقصاؤك عن إدارة مكتب الأستاذ منتصر، ثانياً إقصاؤك عن أموال الزكاة منذ هذا الشهر، ثالثاً تقوم فوراً بتسليم الأوراق الخاصة بتلك الأمور للأستاذ العوفي.

كانت هذه أول مرة يدعوه بعبد الله وليس بكنيته التي يحبها والتي كانت تدعوه الجماعة بها منذ أيامه الأولى لانضمامه إليهم، وكأنه اسم حركي، وذلك كان لشدته وحزمه وتعسفه في رأيه في الحكام، فكان يدعى كذلك على سبيل المزاح ثم ذاع صيته بها، فخوراً بتلك الكنية. ارتفع ضغط الدم برأسه وامتعض وجهه قائلاً:

- هل من المعقول بعد أن أخدم الدعوة كل هذه السنوات، منذ كان عمري ثلاثة وعشرين عاماً حتى صرت سبعة وأربعين، ليس لي

خلالها سوى الجماعة، وليس لي أصدقاء سوى الإخوة حتى عملي في الشركة والنقابة كان جزءا لا يتجزأ من خدمتي للدعوة، ثم يضيع كل هذا. ماذا أفعل حتى أرضيكم؟ أطلقها؟ وهل هذا يرضي الله؟ لا، لن أفعل شيئاً يغضبه أبداً، ولتفعل بي الجماعة وأنتم ما تشاءون.

- كفاك عناداً.. نحن لسنا أم الأولاد، إنك تعلم أن غضب الجماعة ليس هيناً، وهل تظن فرداً يقهر جماعة، وعلى كل افعل ما تراه يناسبك، فقد صدر قرار للإخوة بمقاطعتك، إلى أن تعود إلى صوابك إن أردت أو يتم فصلك، ومن اليوم لن تبلغ بأي اجتماع وسيتولى أمر أسرتك في الجماعة الأخ جعفر، أنت تعلم أنه كان يليك ترتيباً في أسرتك.

نظر في وجوه الإخوة هناك يتلمس تعليقاً منهم أو حتى نظرة تنحاز له بعض الشئ، ولكن كان جميعهم يمتلكون وجوها وعيونا صماء كالصخرة لا تعبر عن أي شئ؛ خرج متخاذلاً، يشعر أن أبواب الرحمة أغلقت أمامه.

وفي اليوم التالي انقضى ميعاد عودته إلى بيته، حتى اتصالاته المتتالية التي كانت تحيط "ببا" وتحاصرها بحبه منذ كسره لقيد "فريدة" لم تزر هاتفها هذا اليوم حتى بدا الهاتف قتيلاً، انتظرته ساعة تلو الأخرى ثم اتصلت به فلم يرد، استبد بها القلق؛ اتصلت ثانية دون جدوى، لابد حدث له مكروه، عاودت الاتصال، رد هذه المرة:

- آلو من معي؟

ردت بلهفة

- آلو حبيبي أين أنت؟

في استنكار قال:

- الاتصال خاطئ

أنهى المكالمة، اتصلت ثانية، تريد تفسيراً

- آلو من معي؟

- "ببا".. ما أصابك؟

- الاتصال خاطئ

وأنهى المكالمة، ثم أغلق الهاتف

كان هو لدى "فريدة" بين شد وجذب، تتلقفه هي والإخوة، لقد ذهب لاسترضائهما قبل خسرانه كل شيء، طالباً عودة "فريدة" في وجود الأخرى، ربما كان طلبه هذا ليس تمسكاً بهذه أو تلك، قدر ما كان شعوراً بالانكسار يحاول مقاومته، كانت "فريدة" تعلم مدى ما وصل إليه، رغم أنها لم تبرز كل أسلحتها، لذلك رفضت طلبه قائلة:

- إما نحن أو هي

فقد جمعت أولادها والجماعة معها في كفة، والزوجة الثانية في كفة، أرادت أن تتسلط عليه تكسره أمام الجميع، وبعد الاقتراحات والمداولات

أجمع الحاضرون من الأهل وبعض الإخوة وفاعلو الخير على انفصاله عن الزوجة الثانية. أطرق متردداً يفكر قليلاً، وأثناء ذلك أعلن أمجد شقيقها:

- إن لم يطلق هذه المرأة ويعود طائعاً خاضعاً لأولاده سألقنه درساً لن ينساه

شعر "عسَّاف" بالخوف والإهانة، صاح محتمياً بالجميع:

- أربي ما عندك يا أمجد، أنت تعلم أنك لن تستطيع فعل أي شئ

ارتفعت الأصوات والضجيج وصرخت طفلته، ظل يرتفع صوته بالشجاعة حيناً ويجبن أحياناً. لقد أراد فقط أن يمنح نفسه فرصة للتفكير، يتدبر أمره.

الفصل العشرون

"نجينا يا رب، نجينا يا رب"

لا يزال المعتوه قابعاً منتصف الطريق أمام منزلهما، يصرخ رغم انتصاف الليل والرياح الشتوية التي تعصف بكل ما هو ساكن فوق أسطح المنازل والشرفات، والمطر المتواصل كالسيل الجارف، وبرودة الطقس، لقد ارتفعت الأمواج عدة أمتار حتى احتلت الطريق صار الكورنيش بحراً موازياً. كانت إحدى نوات منتصف فصل الشتاء (نوات سواحل البحر المتوسط) ولكنها أكثر غضباً تكاد تأتي بأعاليها أسفلها..

أقفل "عسَّاف" وقد بدا مرهقاً، بللت ملابسه وحذاءه الأمطار . كانت السماء في تلك الليلة كما لم تمطر من قبل، أغلقت المياه معظم الشوارع الرئيسية للمدينة، ربما كانت لأول مرة تمطر بتلك الغزارة . بدا عائداً من وطيس حرب، فاقداً قواه.. لاقته "ببا" غاضبة ولم تقل شيئاً، قال هو بصوت بحّه الصراخ:

- مجرمون، مجرمون

صوته يبكى دون دموع، هطول المطر المتواصل كان دمعه، والسماء عينه التي تبكي كانت تعلم "ببا" أن هناك ما دُبر لها، متوجسة، تشعر أنه قد يخبرها شيئاً يحزنها أكثر مما قد يتخيل، كانت في انتظاره ساعات بطول الدهر، ألق البرق فوق النافذة وصوت اصطدام المطر بزجاجها، كان يحيلها

لشجن تستعذبه، كان قد شاركها تلك الأجواء من قبل، كانت تحيطها ذراعاه تسمع نبضه همساً في أذنيها، فيخفت أو يصمت أزيز الرعود، كان دفئه يسري في جسدها حياة، ويتحول الشجن لحزن كبير، تكومت كالقبضة في أريكة الصالون، جلس جوارها خجلاً آسفاً، اقترب منها، جذبها نحوه برفق، اختلطت رائحة نضحه برائحة المطر صار عبق بستان من أشجار الصندل وأزهار القرنفل، فلم ترده رغم غضبها، بل دست أنفها في صدره، طوقته بدت تودعه أو تأنس به، تُوقف هدير الخوف بصدرها.. ضمها وضمتهما الأريكة فناما حتى الصباح.

انتظرت أن يبرر لها ما حدث بالأمس، أو يقول أي شيء ولو كذباً، يفصح عما أخفاه، أخذ رشفة من كوب اللبن الذي أعدته له ثم قال:

- إنهم يريدون فراقنا. لست أدري أي دين وأي رب هذا الذي يعبدونه، فقط هي زبيبة ومفردات وآيات لا يفقهونها، ثم يقال عنهم رجالاً تقاة

تؤكد كلامه بإيماءة خفيفة كما لو تقول (وماذا بعد، وماذا قررت أنت) يتنازعها اليأس والألم، يستمر في حديثه الخاوي كالقرية التي مات أهلها، يحاول أن يملأ المكان الفارغ من كل شيء، إلا من الترقب وانتظار (ماذا بعد) ويظل يكمل متجاهلاً السؤال الفارض نفسه فوق كل عبارة

- عندما يُسأل عن سيرة أحدهم، يقال أنهم من رواد المساجد، وكما قال الحديث (إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان) ولكنهم أبعد ما يكون عن الإيمان

ثم يناقض نفسه دون رد منها أو تعليق:

- ولكن الأصابع لم تتشابه رغم أن كفاً واحدة تحتويها..

ظل يخفي قراره، فسألته مستوقفة استرساله الفاقد للمعنى

- وماذا بعد يا عبد الله

ففجر القنبلة التي ظل يخفيها

- نترك لهم مصر كلها

نظرت إليه مندهشة تستنكر اندفاعه الغريب، تحاول أن تلتمس صدقاً فيما يقوله، ويعقب هو على ما قاله:

- مع الأسف لم أعد أملك سوى أن أقبل مساومتهم وننفصل، أو نذهب بعيداً، وإن قبلتي ذلك سأقدم استقالتي اليوم..

ظلت واجمة، لا تجد ما تقوله، ولم تحزم أمراً بعد، وهل هو يعني ما قال؟ أحقا ينوي ذلك، يترك مصر لأجلها هي، يخطفها على حصانه كفارس الحواديت، كثُرت وتلاحقت في رأسها أفكارً شتى، لقد حفر لها بحراً كبيراً من الحيرة وذهب لعمله، ثم هاتفها:

- حبيبتي.. لابد أن ننفصل!!

الفصل الحادي والعشرون

منذ ولوجه إلى الشارع بالحضرة وعينا "النجرو" تستقبلانه، تهنئانه بالفرار من "فريدة"، لسانه يقول شيء آخر:

- هي أم الأولاد وعشرة عمر والتوفيق بين الاثنتين حنكة الرجال، وأنت لم تغضب الله في شيء

يأخذه "عسَّاف" على قدر عقله مؤكداً:

- هذا صحيح والله يا ريس نجرو ربنا يهدي ويصلح الأمر

صعد إليها، لفظته ولفظه المكان رغم شعوره بحميمية تجاهه وتجاهها، انصرف عنه أبناؤه، لم يحتف به أحد، ظل واقفاً يدور في بهو البيت، فقط تتوالى من أعينهم سهاماً مصوبة نحوه، وقد وجد البيت أقرب إلى الخراب، غرفة مكتبه صارت غرفة لعبث الواردين من الأطفال بل والكبار مكتبه صار للمذاكرة، مكتبته تقسمت بين "صهيب" ويحيى حتى رفيدة كان لها نصيب فيها، يدور غريباً في بيته، جلس دون ترحاب من أحد منهم، في مقعد مكسور مسنده بغرفة الاستقبال، ثم بدأت "فريدة" في إملاء شروطها عليه، طلبت التوقيع على إيصال أمانة مقابل التنازل عن الدعوى القضائية المرفوعة ضده، وآخر على بياض ضماناً لعدم العودة لمثل تلك الأفعال الحمقاء، لكنه رفض وانصرف دون الوصول لحل، فشلت المساعي كلها

حينها. شقيقتها راضية التي كانت تتابع الموقف وهي تجلس جوار شقيقتها دون تدخل تحذرها منه:

- لا تتشددي هكذا معه أنت تعلمين أنه لم يبق على أحد
- ربما كان هكذا قبل ذلك، أما الآن رقبته في يدي بل تحت أقدامي مهما رأيتِ من عناده
- وهو ليس كما كان لتبلغي عنه أمن الدولة، فالزمن صار غير الزمن، لم يعد هناك ما يرعب في أمن الدولة، فهو دائم الاتصال بهم والذهاب إليهم حتى دون استدعائه، بل وحقيبته جاهزة للمبيت هناك كأنه في زيارة لأمه، والله كم تمنيت أن أعرف ما يحدث أو يدور هناك
- أختك لم تعد تضربه بأمن الدولة، وإنما ستضربه (بالغولة)

اندهشت راضية قائلة:

- (الغولة)؟ من؟
- دعي كل شيء في أوانه، وسترين من وكيف، سأجعله يخسر إلى حد لا يستوعبه أو يعود ليقبل أقدامي ليل نهار.

الفصل الثاني والعشرون

نجينا يا رب، نجينا يا رب

كالعادة وبعد الغياب يعود لـ "ببا" نادماً، وأنه لم يتحمل فراقها، ولكن هذه المرة انفجرت قشرة البركان، اندفعت حمماً أطاحت به وبكل ما حوله، صرخت:

- أريد الطلاق، أريد الطلاق حالاً

حاول تهدئتها وإمساكها فلم يستطع، هدير من موجات غضب عاتية، لا يستوعبه المكان، حلقت كالطائر فوق المناضد والأرائك قفزاً سريعاً هنا وهناك صرخت:

- أريد الطلاق.. أريده حالاً

احتضن كتلة جسدها كله، أحاطها بذراعيه، أثقلها بكتلته حتى يتمكن من إيقافها، قفزت هنا وهناك كالواقف على الجمر، وعندما تملك منها سقطت مغشياً عليها، ظلت تلك الليلة تهذي، تحملها الحمى والدوار، تراه خيالاً جوار سريرها.

وقف قليلاً بالشرفة، كان لا يبصر أي شيء حوله، ولم يقع بصره سوى داخله، رآه منزوياً تحمل كفاه الحزن توزعه بسخاء للآخرين، تضاءل مهموماً خجلاً من نفسه.. صعد سطح المنزل، طاف به مراراً وحيداً، ذكر حمام مات وليفه، وسقطت بعض الدمعات، صار يغدو ويجيء ثم جلس

فوق حجر ولم يبرح بصره أسفل قدميه، تيبست أطرافه من شدة الصقيع وتجمد الدم بشريانه من الحزن، حمل حزنه الذي رفض أن يبرحه لحظة، هبط درجات السلم، عاد إليها، تحسس جبهتها.. قبلها، قضى ساعات الليل قابعاً على الأرض جوار سريرها، وجهه في مقابلة وجهها، لم ينم ليلته تلك، ربما لأول مرة في حياته يمر بمثلها ليلة، وأول مرة يُكسر إلى هذه الدرجة، بات في قبضة الحزن ضعيفاً، معصورٌ قلبه كنصف ليمونة، جثا عليها، ألصق خده بخدها، وهي لا تزال في هذيان الحمى، ظل أنفه أمام أنفها، يستشعر زفيرها المحموم، تحسس جبهتها، استنجدها أن تتعافى، ويلبى لها ما تشاء سوى الطلاق.

ماذا أصابه؟ إلى هذا الحد كان فقدها يكسره، أو كان يخشى ضياع شئ يملكه؟ أم لأنها قررت هي ذلك وأن كانت مرغمة عليه، أكان حقاً عشقه لها كبيراً إلى هذا الحد، عشقاً لا يمكن صياغته أو التعبير عنه بأي شئ، وبرغم قوة ذلك العشق كان يطلب فراقها لينجى هو بنفسه وحسب، كما المثل القائل "إذا جاء الطوفان....." كأنه يريدها أن تنصهر فيه، يتشربها شريانه على مهل، تذوب في كراته، ربما تمنى موتها كما تمناه لغيرها. بل لا يريدها أن تحيا أصلاً بدونه ولا معه، ولا تعرف آخر غيره بأي يوم، فالأفضل لديه أن تموت كالأخريات ولا تعرف غيره قط، هو وحده آدم والنساء جميعهن حواء واحدة له.

قرابة الأسبوعين لازمت "ببا" فيهما الفراش، فأبلغ "عسَّاف" شقيقتها وأمها أنهما في رحلة خارج الإسكندرية حتى تماثلت للشفاء. أعد لها وجبة خفيفة وصار يطعمها بيديه أمام التلفاز، رمقته بعتاب مر وشوق أشد وأعنف من ذي قبل، لامته، كاد أن يعاودها الانهيار، احتضنها.. دست رأسها في صدره، بكت وبكى، قبل رأسها معترفا بخيانته لها برضوخه ل"فريدة" وجماعته، قالت وقد تحشرج صوتها:

- ألم تقل أنكما مطلقان ثلاثا، ألم تقل أنه لا سبيل لعودتكما
- تماماً، هذا ما أذكره، لقد طلقتها مرتين على يد مسئول التوثيق ومرات أخرى شفاهة بل تجاوزنا الثلاث بعدة مرات، ولكنها تنكره وتكذبني، تدعي أنها لم تعش في الحرام أبداً وأن الطلاق لم يتم سوى مرتين
- ولكنك ترضخ دائماً، ولا تجد أمامك سواي تضحي بي
- سامحيني يا أحلى وأغلى وأرق النساء، عندي اقتراح قد يريحنا
- أي اقتراح؟
- أقدم استقالتي من عملي بالشركة ونهاجر أي مكان
- ثانيةً هذا الاقتراح؟.. الذي تعصب به عيني عن كل شئ، لم أكن بلهاء لأصدقه
- لما لم تصدقينه، لا تصدقي أني اكتفيت بك عن العالم، وسأظل أنا عاجزاً عن تحقيق هذا المقترح طالما أنتِ مازلتِ في ترددك هذا، وأنا

هنا في مصر محاصر بهم جميعاً، ولأثبت لك صدقي.. فقط قولي لي أوافق على فكرتك مهما بدت مجنونة

- لا أستطع.. إنها لا تناسبني، كما تعلم أن أمي مريضة، وأنا أساعد شقيقتي في رعايتها، فكيف نتركها ونغادر مصر، دعك من اقتراحاتك الصعبة هذه، لماذا أنا دائماً أدفع ثمن صراعاتكم أنت وهي والجماعة؟
- لم يعد يحدث ذلك ولن ننفصل أبداً ولن نفترق أبداً، ولا يكون فراقاً إلا بالموت، أقسم لك لن يكون فراقاً إلا بالموت.

رغم نوبة الخوف التي ظلت تجتاح "ببا" وأشباح جنينها، تمر بهما الأيام أكثر هدوءًا، كان كافياً وجوده ليحول بينها وبين الكابوس، ويعود ليحيط كتفيها ذراعه، يبتعد ويدنو كالطفل يداعب أمه غير عابئ بالمارة، فالكون له وحده والوجود، وعند مرورهما بأحد محال الزهور أتى لها بباقة ورد صغيرة مما تحبه، طارت بها وبه فرحاً كطفلة في يد أبيها، وأثناء سيرهما بطريق المعمورة وقف بالقرب من بائع فاكهة على الطريق اشترى تفاحاً أخضر وباباز، فقالت له:

- لا، الباباز ليس محببا لدي، أبدل به موزا..

سار نحو البائع وقد ابتعد قليلاً، تذكرت شيئا آخر؛ نادته من داخل السيارة، لم يسمعها نزلت بالقرب منها، نادته:

- عبد الله

التفت لها مستفسراً:

- أريد أن أقول لك شيئا

فابتعد على الفور، وقد تضاءل جسده الممشوق طولاً وعرضاً، انكمش خلف كفه المفرود يحمي وجهه، قائلاً

- لا، ستضربينني

فأضحكها المشهد بشدة وكذلك المارة والبائع، كان حبه لها يبهجه ويبعث البهجة في كل من حوله، يعطيه شعوراً بديمومة الحياة، فلا يفنى قلب يحمل كل هذا الحب أو جسد يحمل هذا القلب..

تحاول إجابته وقد تملكها الضحك

- لن أضربك، صدقني سأقول لك شيئا

- لا، اقسمي أولاً أنك لن تضربيني.

على بحيرة قارون قضيا يوماً من الخيال، انتهى في فندق (هيلنان أوبرج)، ثم واصلا ليومين آخرين، عادا بعدها أكثر صفاءً، تودعه كل صباح برقيته بالمعوذتين، على طريقة أمينة (زوجة السيد أحمد عبد الجواد في ثلاثية نجيب محفوظ)، أو بالقبلات الحارة التي قد تسفر عن أجازة عارضة.

وفي منزل أسرتها التقيا بأحد أقارب والدتها، هو رجل مسن ولكن يظهر بوضوح إعجابه لـ "ببا"، احتقن وجه "عسَّاف" وأشار لها بأن يعودا تواً إلى بيتهما، ظل طول الطريق صامتاً يدق بقبضته فوق مقود السيارة وجهه محتقن وعندما دخلا البيت صك الباب خلفهما بعصبية، وكان قد استبد به

الغيظ، فلكمها غيظاً بقبضته في أحد كتفيها، آلمتها فلكمته، فانهال عليها ضرباً بورقة جريدة كان قد طواها عدة طيات، فصارت هي الأخرى تكيل له الضربات بكلتا يديها حتى ارتفع صوته بالقهقهات وكذلك هي، وضع قطعة من المكسرات بين شفتيها ثم أخذها بشفتيه، قبلها وقبلته فاحتضنها.

الفصل الثالث والعشرون

عند وداع شقيقته لرحلة الحج، والتي تشبهه في خيلائها بإيمانها ترتدي عباءة زرقاء وخماراً أصفر فاتحاً يميل للأبيض، قد كوي بعناية شديدة كعادتها، صارت تتهكم على النسوة المرتديات الأبيض قائلة لشقيقها:

- هكذا العوام يرون أن بارتداء المرأة الأبيض صارت حاجة أو معتمرة، ولا يصلح الحج أو العمرة إلا به

تضحك، يشاركها هو الرأي والضحك ثم تكمل حديثها عن العوام

- زوجة عم فتحي استنجدت بوالدتك لنسمح لها بأن تزف ابنتها من مسجد المهدي
- ولكن المسجد ليس به قاعة مناسبات فهو زاوية
- إنهم غلابة لا يستطيعون تأجير قاعة في أي مكان، والشقة كما تعرف، فسمحنا لهم بذلك ولكن بتكلفة قليلة.. أخذنا مبلغاً صغيراً قدر استطاعتهم سيوضع في صندوق المسجد كما ستأتي هي وزوجها لتنظيفه بعد الزفاف وقد اشترطت أمك عليهم ألا يأتوا بأفعال العوام والجُهال في المسجد وأرهبت زوجته وأبلغتها أن الزغرودة تقف شوكة في الحلق فيعجز اللسان عن النطق عند السؤال فلا داعي من الزغاريد ولا الغناء ما لم يكن إنشاداً دينياً

ضحك هو وشقيقته، بينما "ببا" تعاطفت مع ظروف عم فتحي وزوجته فلم تشاركهما الضحك، ولم تستطع الصمت دون أن تدلي بدلوها فقالت

- ولكن المثل يقول (ما يحتاجه البيت يحرم على الجامع) وهم فقراء كما ذكرتم ولا داعي لأن يساهموا للمسجد بأي شيء

صمتت شقيقته متبرمة، بعينيها استنكار واستكبار وعدم رضا، أما هو كان يعلم ما دار بخلد أخته فاحتد في صلف وتكبر:

- هذا كلام العوام الجهلاء بدينهم، بينما الصحيح هو ما يحتاجه الجامع يحرم على كل شيء وأي شيء.

صمتت "ببا" وانتهى الحديث بتعالي كلاهما عليها، لكونها من العوام أما هم من الخواص والرموز التي يجب التأسي بها!!

وفي منتصف الحافلة وقف "عسَّاف" يسدى النصائح للحجاج بكيفية الحفاظ على النظافة والصحة ثم تحول الحديث عن المناسك، وراح يخطب فيهم عن الاهتمام والحرص ألا تفوتهم مناسك بعينها متعدياً مرشدهم، وبما أنه كان مسئولاً عن تلك الرحلات حيناً، فهو الأكثر تبحراً وفقها من غيره، ولمعت فيه الزعامة، وفي زهوه هذا وقعت عينه في عين عيد البحراوي الذي وجده هناك مصادفة، كان مصطحبا أحد الحجاج، واقفاً بمحاذاة نافذة الحافلة، يفصل بين نظراتهما زجاجها ولكنه لم يحد من وقعها في نفس "عسَّاف" فوقفت الكلمات في حلقه، ودار به المكان، ثم اختفى فلا ودع

شقيقته ولا أخبر زوجته، وقد انفض ذلك الجمع دون أي خبر عنه، ليعود إلى البيت بعد وقت طويل متحفزاً مرتدياً قناع الغضب سياجاً له.. سألته:

- أين ذهبت؟

ثار سريعاً وراح يكيل لها الاتهامات، بدلاً من تبرير سبب اختفائه.

- كنت أبحث عنك، أين كنت أنت ؟ ماذا تريني أمامك حتى تفعلي ما فعلته أتهزئين بي؟

- لا.. بل أنت الذي تهزأ بي، أقسم لن أعود أسمح لك بمثله أبداً

- أنت تهددينني، وإن لم تكفي سأجعلها ليلة سوداء

وقضيا ليلتهما في الشجار والاتهامات: "لقد اختفيت أنت"، "بل أنت"، إلى أن هدأت الأجواء من تلقاء نفسها، دون تبرير سبب الاختفاء وذهب كل ينام بمفرده، وفي الصباح لم يعد يذكر أحدهما ما حدث بالأمس.

عاد اليوم من عمله خائفاً ساهماً، جلس إلى مائدة الطعام عازفاً عنه، صرخ المعتوه فزاد اضطرابه وحزنه سألته "ببا" عما به، حاول بلع غصته قائلاً:

- حبيبتي، قد يتصل بك أحد ليبلغك عنى أشياء غير صحيحة

- مثل ماذا؟

- لا أعرف، ولكن يريدون تشويه سمعتي بكل طريقة

- من هم؟

- "فريدة" وأخوها
- لن أصدق عنك سوءًا، ولن أسمح لأحد أن يسئ إليك، ولكن لم كل هذا القلق؟

لم يجب، فأرادت ألا تثقل عليه بإلحاحها، فصمتت، وصمت قليلاً متردداً كان يريد أن يشاركه أحد خوفه واضطرابه، أو حتى يثرثر معه لينفث عما بداخله، تخرجه صرخة المعتوه من شروده، يكمل.

- تحالفت "فريدة" وشقيقها مع أعدائي من الزملاء والإخوة وأشاعوا لقادتنا في الجماعة بأن لي مغامرات نسائية مع بعض الزميلات والوافدات إلى مكتب منتصر
- كيف.. ألم يقولوا هم، إن أخطأ مسلم فلا يجب فضحه حتى لا يشاع السوء عن المسلمين، والأولى هو الستر؟
- هذا صحيح وما يشيعونه عني هو فقط لرموزنا الكبار، وهذا زلزال أكبر بالنسبة لي، فتشويه صورتي لديهم موتي أرحم منه
- وهل يصدقون عنك ذلك؟ وما الضرر الذي يصيبك إذا صدقوا دعواهم تلك؟
- لا أعرف ولكن غالباً ستكون الأضرار وخيمة

ظل يقول ويحكى بينما "ببا" تذكر يوم تأبين السيدة هالة زميلته في العمل، التي أقامتها أسرة المرحومة في بيتها، وقد أعدوا فيه طعاماً كثيرا لكل زملاء وزميلات الفقيدة وتناول سيرتها الطيبة، فكان هو له أثر عظيم على

هذا الجمع، لما قدمه من أحاديث وأقوال تشهد له بالتقوى، ونظراً لانشغال القائمين في المنزل، طلبت منه "ببا" الذهاب إلى الحمام فذهب معها ليريها إياه وأثناء ذلك قال: "ألا ترين هذا؟" مشيراً إلى الحمام، ظنت أنه يتكلم عن لونه أو شكله، قالت: نعم لطيف

رد في غفلة وكأن شيئاً أعاده إلى الماضي القريب، شارداً، ناسياً وجودها إلى جواره:

- هذا الحمام وهذا المغطس كم استحممت به..

أخرستها الكلمة، فانتبه لذلك سريعاً، عاد من غيبوبته، تغافلت هي، بدت له لا تعي ما قاله، ثم يقول لها "اليوم أشاعوا".. "أشاعوا أم هي الحقيقة يا شيخنا؟".. صرخ المعتوه: "**نجينا يا رب**" تنبهت، وجدته لا يزال يقص ما حدث في الشركة من "فريدة":

- فهي تدعي أنني أرتشي بشتى أنواع الرشاوى، حتى لو كانت وجبة فطور من الزملاء لكي أعطيهم عمل به إكراميات وعمولات والأدهى ليس فقط ما أشاعته عني، بل ادعاءها بأنها حامل، كيف تكون حاملا، وأنا قد تركت المنزل وهى حائض!!

صمتت "ببا" لم تجد ما تواسيه به، وبعد عناء لتجد الكلمات قالت:

- أنت أشرف رجل، أما هم منهم لله، ودعك من حملها هذا، إن كان كذباً أو صدقاً.. ألن يأتي يوم تلد فيه إن كانت حاملا فعلاً؟؟

خلع ملابسه بمساعدتها له ثم حاولت أن تحرره من تلك الهموم المحمل بها، فداعبت أنفه بأنفها قبلت باطن كفه كطفل لها، لا يزال في مهده.

الفصل الرابع والعشرون

بعد العزلة التي فرضتها الجماعة على "عسَّاف" وتضييق الخناق، تعنت مع "فريدة" أكثر ولم يعد يرسل لها النفقة، منتظراً حكم المحكمة، بناءً على الدعوى التي أقامتها ضده، قائلاً

- لن أعطيها شيئاً حتى تحكم لها المحكمة، ولنر بماذا ستحكم، وسأعطيها كل ما تحكم به.

كان تعنته لا لشيء سوى تحدٍ للجماعة نفسها، حيث كان يثيره تضامنهم معها ضده فتكفلوا هم بكل شيء، دفعوا مصروفات مدارس أولاده، ثم رفع المحامي التابع لهم بإيصالات الدفع تلك دعوى قضائية بها وحدها، وكذلك ضمت أيضا لصحيفة الدعوى فاتورة مشتريات ملابسهم، وصار جميعهم يتوعده، هذا يتطاول عليه وآخر يعذره.

كانت "ببا" لا تفهم السبب الحقيقي لكل هذا التعنت مع أولاده، متعجبة موقفه منهم سألته:

- وماذا ستفعل لو حكم لها بأكثر مما تتصور؟
- وهل ستغفل المحكمة أنني لديَّ بيت آخر يحتاج الإنفاق، ولى والدان مسنان يحتاجان نفقتي عليهما أيضا، فلنر إذن بماذا ستحكم لها؟
- ولكننا في شهر رمضان وأولادك..

- لا تقولي أولادك، هم أولادها هي، فقد أرضعتهم سمها

لم يمض وقت طويل حتى دبر سفره للحرم المكي والاعتكاف هناك، تاركاً وراءه نفوسا تهدر وتموج بالغضب والسخط، وكما ترك "فريدة" وأولادها دون نفقة، كذلك ترك "ببا"، تذرعاً بأنه لم يستطع سحب نقود من رصيده لدى عبد السلام قطان بسبب سفر عبد السلام خارج البلاد، أما هو فقد أنفق كل ما كان لديه من سيولة لتلك الرحلة.

ربما كانتا تفتقدانه، وهل بات هو راضياً الآن؟ ربما أسعده تركهن خلفه سبايا تتجلى فيه غريزة العقرب، فصار يلدغ هنا وهناك دون تمييز، فلابد وأن يكتوي الكل بناره، منذ متى وقد غشيت عيناه؟ صار الجميع خيالاً في الضباب لا يستطيع تمييزه، يحثه أحد الإخوة ألا يترك "فريدة" لأنها تحبه وكل ما تفعله من نزاع لشدة حبها له، وهي عشرة عمره وأم أولاده، ويحثه آخر مؤكداً له أن "ببا" تحبه وخسارتها بلا عوض، أما هو يترنح بين هذه وتلك، لا يستطيع حسمه، ولن تسمح له "فريدة" باختيار غيرها، ربما يحاول هو ألا يخسر أي شي هنا أو هناك، ولكن في كلا الاختيارين تكمن الخسارة، وعليه أن يربح ويخسر في ذات الوقت، ربما هي سنة الحياة، في الوقت الذي نقضيه بقمة سعادتنا هو نفسه ينزف من أعمارنا.

عبد السلام قطان يقوم بتوظيف أموال أفراد الجماعة من خلال شركة الكيماويات التي يمتلكها، كانت فوائد تلك الأموال لديه أعلى من فوائد البنوك ست مرات تقريباً فتحسنت الأحوال المالية لعملائه وهم من

الإخوة فقط، فصار الكثير منهم يمتلك المحلات ومن له مشروعه الخاص، والكثير يكتفي بعائد نقوده فقط، فصارت المنطقة أشبه بسوق خاص بهم فقط، حتى تهكم صاحب محل لبيع الأدوات الكهربائية بالمنطقة وهو جالس بمقهى "النجرو" قائلاً:

- منطقتنا صارت كسوق عكاظ جديدة

فضحك "النجرو" بخبث يريد المزيد من تهكمه فقال:

- لم يا أستاذ عبده؟ أنت رجل متعلم وكنت مدرساً كبير وتعرف ما لا نعرفه نحن

فثارت لدية الرغبة في الإسهاب ليكمل، مشيراً بيده هنا وهناك في اتجاه بعض المحال

- هذا محل الأخ فلان.. وذاك محل الشيخ فلان.. يتفاخرون بإسلامهم علينا نحن المسلمين، ولا نعرف لم افتقر تدريجيا سكان المنطقة وتعطل شبابها إما يتسكعون في الشوارع أو يعملون لدى محلات الإخوة ومصانعهم، وبالتالي يعتنقون فكرتهم والولاء لهم، أما الحكومة في غياب تام، متنصلة من جميع مسئولياتها، حتى نمت وازدهرت أموال وتجارة هؤلاء الغزاة الجدد، فهم لا يبتاعون ولا يبيعون إلا من بعضهم حتى كسدت بضاعتنا وصرنا نعيش بالكاد، لولا ستر الله والمعاش الضئيل.

تكفلت الجماعة بنفقات أولاد "عسَّاف" وكل شيء يحتاجونه، فصار من حقها مقاضاته بتلك النفقات، بدلاً من "فريدة"، اتخذت على عاتقها التصدي له بكسر أنفه وعنقه، فلم يستطع أحد الوقوف بجانبه حتى شقيقه وهو العضو الأكثر منه بروزاً في الجماعة كان يراه يهوي أمامه دون أن يتحرك له ساكن، بل يرى أن قدر "عسَّاف" أن يذبح بسكين عشيرته، فقرارات الجماعة لا ترد، كما الموت لا شفاعة فيه..

الفصل الخامس والعشرون

ظلت "فريدة" تفكر ملياً فيما هدم بيتها وحياتها رأساً على عقب، وتلامز النسوة عليها ومكانتها التي تدنت. لقد بلغ بها القهر مبلغه، فبأي سلاح تقتله، فكل الأسلحة الآن تودي به، ولكن ما الفائدة أن يموت دون أن يشرب من عذاب كأسه، وما الفائدة أن يموت بعيداً في فراش غيري، يجب أن يكون هنا في فراشي، بلا أتباع ولا أنصار، كما جاء إلى الدنيا يرحل، فتظل ذاكرة الوجود ناصعة بدونه ولم يترك بها أثراً.

وعندما لاح لها جارهم وحبه القديم عند بيت والدها، كان لأول مرة يراها دون النقاب منذ ارتدته قرابة الاثنى عشر عاماً تهلل وجهه، قطع سيرها محدقا فيها:

- ياه... لا تزالين صغيرة وجميلة، نحن نشيب ونشيخ وأنت لا تزالين كما أنت، صبية.

انبسطت أساريرها لمعت عيناها، سقطت عن كاهلها سنوات عمرها الأربعين صارت الفتاة الصغيرة التي كان ينتظرها أمام المدرسة الثانوية لتركب معه الأرجوحة القديمة في مواجهة البحر. أصابها شيء من الخفة والنزق، همت أن تتخطاه لتخفي ما أصابها ثم تثاقلت خطواتها لتسمع المزيد، أبلغها بأنه كان يتتبع أخبارها وقد علم بطلاقها، بكت مجروحة أمامه:

- هوِّني عليك.. من هو ليحظى بفاتنة الحي، كنا جميعاً نتصارع عليك كان الرفاق يحسدونني لأجلك، حتى أتى غراب البين وأخذك منا

ابتسمت مبتهجة لوصفه بغراب البين، فظل يُسمعها إطراءً ومدحاً عندما شعر شدة احتياجها، سار بجوارها حتى وصلت بيت والدها، حالمة فلم تشعر بهمس الجيران ونظراتهم.

عمل "صهيب" بأحد مصانع أواني الألمونيوم بدعوة من أحد أصدقائه رغم رفض أمه ذلك، ولكنه لم ينصع لها، كان يريد تدبير مبلغاً سريعاً لخطبة ابنة خالته كما وعدته أمه حتى يكف عن الركض خلف البنات اللاتي لم ينتمين للجماعة، فيقع فيما وقع فيه أبوه قبله، كان وعدها هذا تحفيزاً لإنهاء دراسته، بينما كان رأيه هو أن يُتمم على الأقل الخطبة الآن، فكان يقضي معظم الليل وعروس المستقبل معه على الهاتف.

كان "صهيب" يحمل كثيراً من صفات أمه في إثارة المشكلات وصفات "عسَّاف" الذميمة، فلم يضع رأسه برأس أبيه وحسب، بل لا يرى فيه سوى محفظة نقود، أما مشاعر أبيه ورغبته لم يعترف بها مطلقاً، كان حاقداً عليه بهذا الزواج، يتحدث عن حمقه واللوثة التي أصابته، بدلاً من زواج ابنه الذي صار رجلاً بالغاً يتزوج هو، وكما تلوك أيضاً أمه ذلك الحديث أمامه.

"صهيب" و"فريدة" يشتركان في عزف نفس المقطوعة ولا تكتمل الأوركسترا إلا بالاثنين معاً، وكان يحيى إيقاعاً مكملاً لتلك المقطوعة وبدونه

قد يفقد الهارموني بين الآلات، فالثلاثة كانت تجمعهم مصلحة واحدة وهي أن يظل "عسَّاف" فقط ممولاً لتحقيق رغباتهم.

أمام ماكينة القطع بمصنع الألمنيوم شرد ذهنه في صراعات أبويه، وحب ابنة خالته والذي ربما يعيق الارتباط بها ذلك الشقاق، ولم ينم الليلة الماضية حيث كان يحدث عروسه في الهاتف حتى الصباح، فهوت سكين القطع بالماكينة لتبتر إصبعين من كفه اليمنى، يراهما أمامه، لم يشعر بألم، ربما لهول المفاجأة، أو لشرود ذهنه، أو لأن ألم نفسه كان أكبر.

ولولت "فريدة" وسبت كالعادة مستغلة تلك الأزمة ليصل "عسَّاف" سبابها وصراخها من خلال الشامتين واللائمين عليه، ليقض مضجعه، تضعه في مصيدة كالفأر، ولكن لا حياة لمن تنادي، ولم يتحقق ما كانت تنشده، ألا وهو البكاء ندماً على أعتابها، لم يعد هناك ما يمنعها من استخدام كل الأسلحة لكسره واستعادته عظاماً نخرة متكومة بقفة بالية، ومهما كانت شريعة تلك السبل، سماً كان أو سحراً أو حكماً قضائيا أو وشاية أو جميعهم ففي حربها ضده كان كل شئ مباحا، لقد نبتت للقهر في قلبها أوتاد وشعاب، وبات لها عنده ثأرٍ وحساب، وضعت أصابع "صهيب" المبتورة أمام رقبته، ذلك كي يقام العدل.

لقد لفح لهيب "عسَّاف" قلوب ونفوس كل من حوله، كل له ثأر عنده وكل له عشق فيه.

غارقة "فريدة" في شرودها، اعتزلت الجميع في غرفتها، انتابتها خيبة أمل بعدم عودته، خاصة وأن المحكمة لم تحسم دعواها بعد، باتت تفكر في التخلص منه وهذا سلاحها الأخير كانت لا تود استخدامه من قبل ولكن هو الأفضل لديها الآن، فتأخذ لقب الأرملة ويحصل أولادها على ميراثه ومعاشه وعطف الناس، واستعادة كرامتها أمام الأخوات اللاتي ينظرن إليها بأنها المرأة التي هرب منها زوجها، وقد أكدت لهن مراراً أنه يعشقها، وأنه كالخاتم في إصبعها، والأهم من ذلك كله هو ألا يستفيد أحد مما يملك، سوى هي وأولادها.

اقتحمت عزلتها شقيقتها راضية التي كانت تتواجد كثيراً لمواساتها، كانت تهدهد الرضيعة جنى، ذلك لأن "فريدة" لم يعد لديها طاقة للطفلة، سألتها راضية:

- ستظلين هكذا حبيسة غرفتك؟ ابنتك جائعة.. خذي أرضعيها

أخذت منها الطفلة ترضعها وظلت شاردة

- بماذا تفكرين؟
- أفكر بـ "عسَّاف"
- وهل توصلت لعمل شئ مع "عسَّافك" هذا؟
- سأقتله

ألجم راضية كلامها واتسعت حدقتاها، ولكنها تداركت سريعاً، ظنتها تقول ذلك لشدة غضبها فقط، ولم تصدق ما قالته، نظرت إليها "فريدة"

وبعينيها إصرار وحقد كبيران، طلبت منها المساعدة، كسا وجه راضية التوجس والخوف، سألتها:

- فيم؟
- في التخلص منه

أصاب راضية الرعب منها، ارتجفت.. بدت لها كما لم تعرفها من قبل، هي ليست هي، بل شخص آخر يتحدث، حتى نبرات صوتها كانت مختلفة بدت كمن أصابها مس تمالكت راضية نفسها قبل أن تفر من أمامها، قالت:

- اهدئي لتتمكني من أخذ حقك منه، ونحن جميعا معك، سنوقعه كل يوم في ألف مصيبة ومصيبة.
- ما عدت أريد له المصائب، بل التخلص منه..
- لا تفكري هكذا، فلا تقهرينا عليك، ويحرم الأولاد منكما معاً
- لذلك أقول لك ساعديني حتى لا نترك دليلاً، وأنا سأعوض أولادي
- أنت مضطربة ولكن لا تصل الأمور إلى هذا الحد، فهو أبوهم وكان يوماً زوجك ولم يهن عليك أبداً، وأعلم مدى حبك له
- هان، مثلما هانت عليه عشرتي وأولاده
- إلى هذا الحد صرت تبغضينه

- لم يعد حباً أو بغضاً يا راضية بل إنقاذ نفسي وأولادي، أما قلبي سأدفنه معه في نفس الليلة التي أتخلص فيها منه وينتهي الأمر، سأزرع سكيناً مكانه في قلبي
- لن يسامحك أولادك
- لن يعلم أحد منهم، إنني أنقذهم يا راضية
- لم أعرف أنك قوية إلى حد القتل، ومن؟ أبو أولادك!!
- لن يكون ذلك هيناً، سأقتل نفسي معه، أودعها قبره، وإلا ... فإلى متى سنظل في تلك الصراعات؟ وكل ما بنيته معه تأخذه غيري.

لم تحتمل راضية سماع تفاصيل تلك الجريمة، كذبت ما سمعت أذناها، متيقنة بأنها مجرد فضفضة أخذت الطفلة لتنيمها، أما "فريدة" ظلت تحدثها ولم تنتبه أنها تركتها وذهبت

- كان رفيق دربي، وكم من الأيام والليالي قضينا، واليوم يريد أن يترك لي الطريق والدرب، يتركني دونه بلا سند، يكشف ستري، تنهشني العيون المسعورة والألسنة المسمومة، رغما عني فراقه، ولكن هو الذي ترك طريقنا لأسير فيه وحدي، وأنا سأنحيه كل الطرق، ما عاد طريقي له، ولا طريق غيري، هو الذي وضع النهاية.

تمددت في فراشها ناظرة في سقف الغرفة تدبر الأمر. غرفة ذات حوائط سوداء في سقفها مصباح معلق كالمشنوق، شحيح لا ينبعث منه ضوء بل يتدلى شعاع خافت كاللسان ، يدفعها عشماوي من الخلف، يزجرها:

- قفي هنا

رجل دين يقف بعيدا، ربما بباب الغرفة لا يكاد يُرى، ولكن واضح صوته، يلمع في الظلام كحد السكين

- رددي خلفي الشهادتين

تصرخ وتصيح

- لو عاد للحياة ثانية سأقتله، سأقتله مراراً، كم ليلة مرت وكنت صريعة في فراشي، ينتصب سريري منصة إعدام

يدفعها عشماوي "قفي هنا".. يلبسها ما يخمر رأسها ووجهها

- لا أريده، هكذا أموت وعيني مفتوحة للوجود، ليتذكرني دائماً بأنني كنت أنا القتيل

لا يستجيب عشماوي يفتح مصرعي بئر الإعدام أسفل قدميها، تصرخ فزعة لتضمها راضية مستعيذة من الشيطان الرجيم.

هاتفها حبها القديم مشتاقاً فقط لرؤيتها فخرجت من دوامة حقدها مسرعة إليه ليس لإطفاء رغبة أو شوق، بل لتشعر بأنها لا يزال لها وجود ولها عشاق، تشعر أنها لا تزال حية ولم تسقط في بئر الإعدام، لم تمت. أكد لها بأن "عسَّاف" الذي فضلته عليه لم يعرف لشدة حمقه قيمة ما كان

يملك، ويؤكد لو صارت زوجته الآن لظل يقبل أظافر قدميها حتى ناصيتها مروراً بكل قطعة في جسدها في احتفال مهيب لكل ما فيها، فارتوت نفسها المكسورة والحبة المقلوعة من زمن وترعرعت، تمنته وإن كانت المرأة الثانية في تلك العلاقة، قد يكون هذا هو الشفاء، شفاء نفسها وقتل "عسَّاف"، وانتقاماً من جميع النساء اللائي فضلهن عليها، ربما كان هذا الخنجر هو أشد فتكاً وأشفى غليلاً و إن نالت شفرته وريدها. التقت بالعاشق في بيت والدها الذي تأكدت أنه يبيت الليلة عند شقيقها، ويفعل العاشق كل ما وعدها به، لم تشعر بعدها بندم بل كانت تريد المزيد، فلم تر أفضل منه سلاحاً فهو السم والترياق.

الفصل السادس والعشرون

مرت أيام ثقال على "ببا" وكوابيس لازمتها في الليل والنهار، حتى أقفل "عسَّاف" من عمرته وكان قد فاض به الشوق، منذ هاتفها بأنه سيصل الإسكندرية غداً وهي في انتظاره منذ الصباح بمطار برج العرب، عندما لمحته ركضت نحوه.. تعانقا طويلاً، ظل يثرثر طول الطريق عن حبه وعشقه لها، ووصفت هي حالها لافتقاده ورعبها عليه، حتى وصلا منزلهما فألقى أمتعته بمدخله وتعانقا أكثر وكأن أدركهما الموت هكذا، فلا يرمش طرفيهما، فقط تسبل الجفون وتنساب الدموع، ويصرخ المعتوه.

كانت ضربات قلبها قوية كرفسة حصان، يكاد يشق الأضلع يقفز خارجها منتحراً أو يحيا داخل صدره هو. يحملها ويدور، يحتويها قوس صدره، تعشق كفاه وخاصرته السمينة وكذلك انحسار شعره، في جبهته الآفاق ونضح الندى فيها يزينها وأطيب العطور، كان هو بحراً غرقت في خضمه، هدير من موج عاصف لم يتحمله قلبها ولم يستوعبه صدرها، يرفعهما الشهيق العنان كتلة واحدة وروحاً واحدة ويسقطهما الزفير كتلتين وروحاً واحدة.

صار يعد "عسَّاف" لهما رحلة تلو الأخرى، ولكن ظلت "ببا" تتوجس غدره وتخشى تقلباته كشهر أمشير، أما هو يرى أن الوقت كفيل بمداواة ما أفسده، برغم ما تدبره "فريدة" من مكائد ورغم ألمه الشديد لما

أصاب ابنه "صهيب"، حزن كثيراً لذلك، انتابه شعور مغاير بأن "صهيب" هو قطعة منه، امتداد اسمه بل هو نفسه، وخبت مشاعر أخرى كانت قد انتابته فترة طويلة من قبل، أتى له بطبيبٍ كبير لينقذ أي شيء ولكن دون فائدة، وهل ينبت له إصبعين من جديد؟ فلابد من تقبل الأمر الواقع.

عاتب "عسَّاف" ولده، لعمله وهو لم يكمل دراسته بعد مما تسبب في هذه المصيبة، فأجابه "صهيب" وكله إصرار بأنه سيستمر في هذا العمل إلى أن يتخرج ليتمكن من خطبة ابنة خالته مؤكداً له بأنه يعلم عدم مساعدته في زواجه منها بسبب خلافاته مع أمه، ولكن "عسَّاف" أكد له خطأ ظنه بل سيساعده، ولكن "صهيب" لم يتراجع عن موقفه بل ساوم أبيه بأنه أذا وقف بجانبه في زواجه فسيساعده بالمثل في حل مشاكله مع أمه، فسأله "عسَّاف":

- ماذا تريد يا "صهيب"؟
- أريد شقة أو على الأقل تساعدني فقط أن أتملك شقة
- أما زلت صغيراً يا "صهيب" على الزواج والمسئولية؟
- أنت تزوجت في سني وربما أصغر.

انضم "صهيب" لصف أبيه كعربون اتفاق، مستأجراً دراجة ليشاركه هو وزوجته السير بطرقات المعمورة وانطلق بها في سباق مع الريح، لتظل دراجتهما هو و"ببا" تسيران رويداً كخيول عربية وسط البراري مصطحبة بالقهقهات في ليل المعمورة الهادئ، وبشتاء الإسكندرية الساحر، يبعث

صوت الموج وحركة الهواء وبراح المكان بموسيقاه الفريدة بدت همساً في أذنيهما دون الآخرين، بدت آتية من أحد البواخر البعيدة أو هي مهداة من أحد الأنجم التي ترسل لهما ابتسامة، لتظل شاهدة لآلاف السنين على عشقهما والمكان.

الفصل السابع والعشرون

حصلت "فريدة" على أحكام قضائية فاقت توقع "عسَّاف" تماماً، جعلته يترنح، لقد اتفق محاميها الإخواني مع محاميه الإخواني أيضاً على تأديبه، فعملا على خسران كل ما يقوم به ضدها، حيث قدم المحاميان ما يثبت أن لديه أكثر من دخل بالدلائل والبراهين، فحكم لها القاضي بنفقة أكثر من دخله بكثير، وأجرة لإرضاع الصغيرة جنى، جاءت حيثيات الحكم أنه رجل تخلى عن مسئوليته مما قد يتسبب في ضياع أبنائه بعد أن اعتادوا رغد العيش، تركهم يسألون الناس وتضيعهم قسوة الحياة و(كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يكفله) ثار "عسَّاف"

- وما العمل يا أستاذ

قال له محاميه

- لقد قدمت طليقتك ما يثبت أن لديك أكثر من دخل، غير بعض الممتلكات التي تدر عائدا كبيرا
- ولكن هذا ليس صحيحاً أنا فقط موظف وأنت تعلم ذلك
- نعم أعلم ولكن القاضي ليس له إلا أوراق تقدم أمامه ويحكم تبعاً لها

أصيب "عسَّاف" بخيبة أمل، ولم يقل له محاميه أن يقدم استئنافاً، ولم يجد له أية حلول، حتى قال له أحد الزملاء لما لم تقدم استئنافا، فتجدد

أمله في الخلاص من هذا المأزق فهرول إلى محاميه وطلب الاستئناف فأجابه المحامي

- ولم لم تطلب الاستئناف قبل ذلك، كان يجب أن تقول لي عندما أبلغتك بالحكم
- لم أكن أعلم أن هناك استئنافاً في مثل تلك الأمور، ومع ذلك أطلبه منك أن تقدمه الآن
- بعد ماذا يا أخ "عسَّاف" مع الأسف لقد انقضى ميعاده وصار الحكم باتاً
- ألست مسئولاً معي، لم لم تقل لي أن هناك استئنافاً
- أنا لم أقل لك، أنت الذي تطلب الطعن يا أستاذ
- دون أن أعلم أن هناك طعناً أصلاً

انصرف عنه محاميه منشغلاً في أوراق القضايا الملقاة فوق مكتبه تارة وفي الهاتف أو موظفي المكتب أخرى.. سار "عسَّاف" متخبطاً يميناً ويساراً، ذهب سريعاً إلى محامى أخر من جماعته، قص عليه ما حدث، ولكن بدا هذا المحامى لا يعرف أي شيء أو كان متواطئا معهم أيضاً، فصار يقول له شيء ثم ينقضه، وكلما أفتاه بحل عاد ونقضه، فأغلق الباب على "عسَّاف" وأُحكم.

على أثر تلك الأحكام لم يجد بُدا من تسوية تلك القضايا والمنازعات، فذهب إلى "فريدة"، وكالعادة حدث بينهم شد وجذب، ساومته بطلاق

الأخرى مقابل التنازل عن الدعاوى المرفوعة، والتوقيع على إيصالات الأمانة التي رفضها من قبل حتى تعود لعصمته، أجابها بالموافقة دون تردد، كشفت وجه الطفلة قائلة.

- أرأيت جنى ابنتك؟

أصابه هم وغيظ شديدين، لم يستطع الإفصاح عما بداخله، ليس لديه يقين بأنها ابنته ولكنها قد تكون، وبعد تناول العشاء معهم ودعته حتى الباب برمي القبلات، كرمي الجمرات، تبسم وبادلها الرمي.

ظل يستجدى "ببا" أن ينفصلا في هدوء، لأن طباعهم مختلفة والحياة بينهم صارت جحيما.

- كيف؟ ماذا تقول؟ لم أفهم أي جحيم؟ أفي الصباح عاشقان وفى المساء جحيم لا يطاق، لابد أنك مجنون
- أرى أننا لم نعد نصلح لبعضنا، هذا خلاصة القول

توسل إليها أن تتركه، صرخ المعتوه: نجينا يا رب...

- اتركيني لها، ننفصل بلا مشاكل، لأنها ستسجنني، هي والإخوة بل والشياطين الذين تحالفوا معها ضدي اتركيني لها، اتركيني حتى ترتاح، "فريدة" لن يمنعها عنى إلا موتى.

جمع ملابسه في حقيبة لم تستوعب كل ماله، ربما كان متعمداً ذلك حتى يظل مكانه محجوزاً في قلبها وفي الخزانة وكما يفعل دائماً، لم يحتمل أن تفرغ القلوب من حبه أو تفرغ الأدراج من عبقه وبصمته، فيترك مساحة ولو

صغيرة كالثقب للعودة، فتظل قدم هنا وأخرى هناك، ولا شيء يحسم مهما طال العمر ومثلما فعل مع فريدة يفعل مع ببا.

مكث لدى أمه حتى يصل إلى حل، وهو أن يطلق "ببا" ويعود لـ "فريدة"، حتى ينجو من كل ما حاكته له، وها هو ذا يحاول العودة، بعد كل تلك المشاحنات وفقد الأمل في عودته، يعود، فهو دائماً يعود كمرض الأنفلونزا.

اصطحب أباه إلى "فريدة" ليعلماها نصرتها على غريمتها، كان أبوه مرتدياً بذلة بترولي من أيام شبابه، جلس جوار رفيدة بعد تقبيلها، عصاه أمامه لا يزال متكئا عليها ومن حين إلى آخر يزيد من ضبط وإحكام القلنسوة فوق رأسه قالاً:

- ولدي "عسَّاف" لم يستطع أن يترك أبناءه دون أن يكفلهم ولذلك يود عودتكما، ويجب أن تهدئي من عصبيتك أنت أيضاً وتكفوا عن الشجار، ولنبدأ صفحة جديدة

تبسمت تهكماً، ولكن أباه يكمل متجاهلاً تعبيرات وجهها المتذمرة:

- لقد سمعت أن شقيقك كان يريد زواجك من جار لكم في بيتكم القديم، أهو كان منتظر طلاقك ولم يتزوج حتى الآن، أم مطلق هو أيضاً؟

لم ترد "فريدة" عليه، كانت حريصة ألا تسبه، ولكن كل ما كانت تريد قوله كان بادياً بتعبيرات وجهها، وهو لازال يكمل

- أكيد كان الهدف من هذا الزواج أو الإشاعة تلك هي إغاظة "عسَّاف"، ولكن الأهم من الغيظ وهذا الكلام الفارغ هو كيف يدخل على أولادنا رجل غريب، وهل أنت تقبلين ذلك؟
- وزوجة ابنك من أقاربهم ؟
- ولكن تعيش الزوجة في كنف زوجها وليس العكس، فهو الذي يمتلك زمام الأمور
- وأنا أمتلك زمام الأمور
- القوامة للرجال وليست للنساء، ولا أعلمك شيئاً تعلمينه أنت للنسوة في المسجد ليل نهار، فلو أنجب الرجل من جميع النساء كلهم أولاده ويحملون أسمه وينفقون من ماله أما المرأة تصير مثل القطط كثيرة الأولاد وكثيرة الأزواج..
- وأنا لو أنجبت من عدة رجال فلابد أن يكون زواجاً شرعياً على سنة الله ورسوله وجميع ما أُنجب هم أولادي أيضاً، ولا تهم لدي الأسماء، ولاحظ أنك تتطاول عليّ وهذا لن أسمح به
- طول معرفتنا بك عنيدة وسليطة، فكفاك شجاراً يا بنتي مع كل ما يمت لـ "عسَّاف" بصلة، لم نكن أعداءك، وعلى كل حال نحن جئناكِ لنقول عفا الله عما سلف.

أدار وجهه لـ "عسَّاف" وقد ازداد عبوساً، آمرا أن يكف عن الشجار هو أيضاً وأدار وجهه لها ثانية وطلب منها التنازل عن الدعوى المرفوعة.

ضحكت ساخرة رافضة العودة حتى تهدأ نفسها نحوه، ويتم الطلاق الفعلي لـ "ببا"، صاح "عسَّاف"

- أتتلاعبون بي؟

لا أحد يبالى به، ولا يعنيها صياحه، ورغم صياحه ذلك ظل يقدم رجلاً ويؤخر الأخرى عيناه تدور في اتجاه المراهقين خشية أن يصدر منهما فعل يسبب خسارتهما للأبد، أما هما تأخذهما عاطفة الأبوة تارة والبغضاء أخرى، ثم ينصرف وأبوه وهو يقول للمراهقين:

- يجب أن تروا ذلك وتفقهوه جيداً فأنا لم أترككم كما تدعي، تذكروا ذلك جيداً.

بكل هدوء دخل غرفته لدى "ببا" وكأن لم يحدث أي شيء، كان يريد أن يقول لها بأنها الأغلى والأحلى كما يقول دائماً ولكن انتحرت الكلمات فوق شفتيه، ولم تعلق هي بشيء بل تركته كأنما لا وجود له، تمدد في السرير جوارها، ولكن كانت تفصلهما أودية وجبال، وجه كل منهما في اتجاه، أعينهما شاخصة تحملق في فراغ بعيد، فقط تخرج الزفرات وترتفع الصدور بالجراح وتهبط بالهزيمة.

ومع أول خيط أبيض في جبهة الليل الحالكة، كان في مواجهة البحر أمام بوابة شركته يشعر بأنه طير من طيور النورس التي تحلق أمامه، يجب ألا يملكه أحد، فهو محب مخلص لهن جميعاً بنفس الصدق كحبه للحياة، بل يرى الحياة من خلالهن، فسواء خرجت حواء من ضلعه أو خرج هو من

رحمها، النتيجة أنهن نفسه، روحاً واحدة لجسدين، لا يهم لديه لمن كان البدء هو أم هي، لم يكن شبقاً بقدر ما أراد اكتمال الدائرة بتلاحم النصفين، فقط يريد رأب الصدع الذي فصلهما منذ بدء الخليقة ليعودا جسداً واحداً وروحاً واحدة! كان يريد أن يحوزهن لديه، يهزمه من تحاول كسر قيده، فموتهن أهون لديه من مقاومة فكرته النبيلة تلك، ظل هناك في مواجهة البحر شارداً، تراوده أفكارٍ شتى، أيلقي بنفسه للموج يأخذه؟ يرتاح حتى من فكرته تلك؟ ولكن لعل الموج يغرق المدينة كلها، يغرق العالم، لينجو هو، يتحقق حلمه بالاكتمال، يعدن داخل صدره يرقصن فيه يحطن قلبه، أو يعود هو لمحيط سياجهن، ولكن دائماً ما كانت تأتيه الرياح بما لا تشتهي سفنه.

بعد مضي وقت طويل في مواجهة البحر حتى صار الضحى، ذهب قاصداً عبد السلام قطان، طلب رد جزء من أمواله لديه، ثم ذهب إلى "فريدة" وحده هذه المرة وأعطاها إياها، وقد خطب ودها ثانية، فكانت أكثر مرونة، قالت:

- أنا أحبك وأريدك لي وحدي، طلقها وعد لنا

لم يرد ولكن عينيه توحيان بالانصياع، ناظراً في وجهها كأنه يريد يتلمس منه صدقاً، ويعيد عليها وعدها

- قلت لك سأطلقها ونعود لبعضنا وأولادنا لكنك طلبت أن تهدأ نفسك أولاً

- نعم لأنك لم تطلقها، انهي أمرها حتى نرتاح ويرتاح أبناؤنا

الفصل الثامن والعشرون

اصطحب "عسَّاف" أحد الإخوة وذهب لـ "ببا" ليتفق معها على الانفصال، تركه أسفل المنزل، صعد وحده، توسل إليها ألا تغضب منه، فهو مضطر لهذا الفراق، وهي أحب امرأة إلى قلبه، قال وهو يتفطر ويتهدج صوته:

- آسف يا أحب إنسانة لدي، فرقت بيننا الأقدار، أكرهوني على فراقك، حاربوني ولم أستطع الصمود
- ألهذا الحد أنت ضعيف، عندما قهرتك وكسرتك كنت لها، إذن سأبذل جهدي لقهرك حتى تكون لي.
- لن تستطيعي أن تكوني مثلهم
- لا.. بل أنت لم تعرفني. ربما أكون أكثر منهم كيداً، لو كنت أعلم أنك عائد إليها لشدة حبك ما كنت أقول شيئا، لكن دون ذلك لما يقهرنا الفراق؟
- لم أعد أستطع الصمود، لقد بعت نصيبي في بيت العائلة ولم يكف سداد الديون التي كبلتني بها. لقد قلت لك من قبل، نترك لهم مصر كلها، نذهب بعيداً، في أي مكانٍ آخر، إنني لم أرد غيرك، ولكنك لم تطيعيني، ربما ظننتني أخدعك

- عجبت لأمرك، أتترك من أحبتك لتكون لمن يحفر لك! وماذا أفعل أنا؟ بدونك سأموت، لا تقتلني ثانية وكفا كل ما حصدته من بذر يدك
- بل أنا سأموت بعشقك، ومهما افترقنا سأنتظر لقاءنا ولو في الآخرة، فلا الجماعة ولا "فريدة" ولا أحد له سلطان علينا.

يصرخ المعتوه "**نجينا يا رب**"

قدم إليها رزمة من النقود، مقابل الإبراء، وقال:

- سأترك لك هذه النقود حقك الشرعي، لقد بعت شقة المعمورة لأسدد الديون التي أحاطتني
- دون علمي.... وأنا شريكتك فيها
- ليس لي شريكي فيها؛ هي باسمي، أن أخذت منك نقوداً وها أنا أردها لك
- نقود؟.. أهي حقي الشرعي كما قلت أم حقي في الشقة؟
- هذا كل ما أملكه بعد أن جدولت ديوني مع "فريدة" والجماعة لقد أخذوا كل ما ادعوا أنهم أُنفقوه على الأولاد
- ولكنك لم تأخذ مني نقوداً فقط، لقد أخذت قلباً ومشاعر وسنوات.. تظن نفسك مننت عليّ... نزعت ألماً كان يسكن نفسي وكنت أعيش به، لا.. بل زرعت آلاماً أخرى أكبر منه جاورته فلم أستطع العيش بهم جميعاً

- لا.. لم أمن عليك بشئ بل سببت لك جراحاً كبيرة، ولكنني مكره على فراقك وأنت تعلمين جيداً، بالله عليك هذا أنا الذي أريد فراقك؟ وأنا الدرويش في عشقك
- صدقني سأموت بدونك
- سأظل أتعذب بك دوماً

ثم صارت تتكلم عن النقود والشقة وما لها عنده علها تثني عزمه عن الانفصال طالما كل هذا لا يأتي بنتيجة مرضية قائلة

- لي عندك ذهب ومصوغات أريدها أيضاً
- هذا ما عندي ولم أستطع التصرف في أكثر منه، وهو كل ما استطعت تدبيره

صرخ المعتوه "**نجينا يا رب**" بدا المعتوه هذه الليلة أكثر انزعاجاً.

- ولكن لي أضعافه عندك فكيف تريدني أن أقبل بهذا المبلغ، لقد بعت مصاغي لأجل الشقة التي كتبتها باسمك، فإما تعطيني النقود كاملة أو شقتي

من المؤكد أنها كانت لا تعنيها النقود كثيراً أو الشقة قدر ما كان هو نفسه الذي يعنيها تحاول منعه تعرقله من العودة ليظل لها ومعها. ظل هو يجادل أن هذا ما استطاع تدبيره. كان يريد أن يتحول حربه معها إلى عقار ونقود لأنه لم يستطع الخوض في العشق والمشاعر التي كانت تلجمه وتبكيه.

لم تجد أمامها بداً من الحيلة للانتقام، تبدلت سريعاً، صارت المحبة العاشقة قائلة

- إذا كان لابد من الفراق فلنجعلها ليلة وداع، ولتكون أسعد من ليلة زواجنا.

صار هو أيضاً أكثر عشقاً ورومانسية، خلع ملابسه وارتدى ملابس نومه، وقد ترك الرجل الذي كان بصحبته ينتظره أسفل المنزل غير مبال به، وصرخ المعتوه "**نجينا يا رب**"

لا يملك "عسَّاف" ألا التمني بموت "فريدة" والجماعة ربما حتى "ببا"، يعود حراً كما خلقه ربه، حراً حتى من ملابسه، وقد خلعها ليدخل الحمام استعداداً لليلة حب، ربما هي التي سيعيش بذكراها، بينما أخذت هي النقود وأسرعت إلى المطبخ، تبحث عن ثقاب لتشعل النار فيها، لتحرق قلبه عليها كما أحرق قلبها بفراقه، وهو الذي قال دونها الموت، فلم تجد الثقاب، أسرعت تبحث هنا وهناك دون جدوى

صرخ المعتوه "**نجينا يا رب**"

كانت تريد فعل ذلك سريعاً قبل خروجه، تبحث عن قداحة الموقد لم تجدها، أوشك على الخروج، فألقتها من نافذة غرفتها، فعلقت بأنبوب الصرف، عادت وقد أبدت هدوءاً وكأن شيئاً لم يكن، بل هي أمام المرآة تتزين،

صرخ المعتوه "**نجينا يا رب**"

أنهى حمامه، قبلها ثم راح يقلب ملابسه، فلم يجد النقود، صدمه ذلك ولكنه تمالك نفسه، قال:

- لقد أخذتي النقود حبيبتي مقابل الإبراء، وكنتي تريدين تجديد سيارتك أفعلي ذلك
- لا أبدا...أنا لم أخذ أي نقود
- حبيبتي أعطني النقود طالما انك تنكريها، أقسم لك أنني أحبك ولا أريد أن ننفصل أبدا ولكن هذا رغماً عني، صدقيني أنني مكره، ولا يقع الطلاق بالإكراه، وإن شاء الله "فريدة" ستموت قريباً، فهي مريضة قلب منذ سنوات، منذ زواجنا قالوا عندها ارتجاع بالصمام المترالي وقد حذرها الطبيب وقتها من الإنجاب، هي ستموت عاجلاً، لقد كنت أدعو عليها ليل نهار.
- ماذا تقول لو لم أعرفك لقلت أنك أبله، رغم تحذيرات طبيبها أنجبت أربعة أبناء، وأنت عشت معها عمرك كله تنتظر موتها، وتريدني أنتظر معك، أفق يا "عسَّاف" كلنا سنموت.

بدا طفلاً ساذجاً يمني نفسه بأشياء خرافية، ضئيلاً لا قيمة له، لكنه يشعر بمدى صدق عشقه لها، كما يشعر أن هذا ما حدث وأنه لم يشأ البين ولم يسعى له ولكنه الإكراه، مقتنعاً بأنه لابد وأن يأتي يوم وتموت "فريدة" ويسعد هو بدونها. ظل يستجدي "ببا" ليخلص نفسه، ثار إلى حد التطاول بالضرب، ثارت هي أيضاً رغم أنه لم يقس عليها، بل بدا ضربه

مزاحاً، ضربته هي الأخرى، فخرج مندفعاً إلى الرجل المنتظر أسفل البيت، كما لو قفز فجأة إلى رأسه أمر جسيم، متذكراً شيئا ما خطيرا كان غائباً عن ذهنه، ربما تذكر الرجل المنتظر وربما خشي أن يكون قد سمع شيئا، فماذا سيقول عنه، جاء ليقضي ليلة حب تاركاً خلفه الدنيا كلها تموج بالغضب، وتركه ينتظر كطفل لا يفقه شيئاً.

تصنع "عسَّاف" الغضب وأخذ صاحبه وانطلقا في الشارع كما لو كان يلوذ بالفرار، حكي للرجل بأنه دخل الحمام ليتوضأ ثم عاد ليجدها قد أخذت النقود.. صار رأس صاحبه في تدبر الأمر فقال الرجل بفطنة إبليس:

- لا.. بل سرقتك هكذا تقول، والشهود كُثر

نصحه بعمل محضر حالاً، حتى لا تنقلب عليه الدنيا، فلن يقبل عيد البحراوي بمثل تلك الترهات. صار "عسَّاف" من قسم الشرطة إلى النيابة وخلفه إخوانه وأنصاره، لتعميق البئر التي ستُقذف فيه "ببا"، بكي "عسَّاف" كثيراً ولكن ظل ماضيا في التنفيذ، دون أدنى إرادة منه، كان يريد الخلاص ليس من "ببا" وحسب وإنما من المأزق كله، وقد حرر المحضر واصفها بأنها سرقته، ولم يذكر فيه أنها زوجته.

كانت أمه صامتة، كما لو كانت تقدمه للمجهول لتنفيذ ما كُتب عليه سلفاً، أما أبوه لا يتدخل إلا بالقدر الذي يسمح له به وحينما يطلب منه

ذلك، الجميع آثر الصمت في ذهول كيوم الحشر إلا نجوى ابنة أخته المتزوجة حديثاً ولا تزال في حلم شهر العسل، قالت:

- لماذا يا خالو كل هذا وأنت العاشق لها وكنت تتحدى لأجلها الدنيا أو كنت أرى أنا هكذا بل كنت أراك تتحدى بها العالم بأسره، تزوجتها وأنت تعلم أن مقصلة الإخوة لن ترحمك، ومع ذلك أقدمت عليه بكامل قواك العقلية والآن تنفض يدك عنها وكأنها هي سبب ما أنت فيه، والحقيقة أنت تعلمها، تعلم من هو سبب ما أنتم فيه، كنت أنا وزوجي وأهله نتعجب من هذا الحب ونسعد بمجرد ذكر حبكما الذي لم أر مثله حتى في الأفلام..

يأتي من بعيد صوت أمها يعنفها

- كفى ودعي خالك يدبر أمره، عل الله يخرجه من كل تلك المصائب
- حرام علينا يا ماما لابد أن يصغى خالو لضميره

لم يحتمل "عسَّاف" أكثر من ذلك، وضع كوب العصير المصلوب في يده قرابة الساعة بعصبية فوق الطبق محدثاً صوتاً كالصرخة، ترك بيت أخته وانطلق إلى الخارج، ظل سائراً عبر ثقب الإبرة الضيق يحاول ملأ رئتيه بالهواء الذي يأبى الولوج إليها، بل تضيق ولا تتسع إلا للحزن الجاثم فوقها، جلس بكافيتريا القوات المسلحة بالشلالات لهدوئها من ناحية وماله من ذكرى معها هناك، عندما كانت "ببا" تعاني التهاب معدتها ومنع عنها الطبيب

كثير من أنواع الطعام، صار لها أكثر من ثلاث أيام لم تستطع تناول الطعام، اشترى لها تفاحاً وموزا وطلب سكيناً صغيرة من الكافيتريا، صار يقطع لها التفاح قطعاً صغيرة يأكلها قطعة تلو الأخرى بيديه، كانت ركبتاه تحيطان ركبتيها ووجهه في مقابلة وجهها، حتى كانت أنفاسه تملئ رئتيها، مندفع رأسه للأمام نصب عينيها يقول كلاماً كثيرا وتضحك ويضحك ويهمس ، كانت بحيرة البجع المهجورة أمامه وبقايا سور الإسكندرية المتهدم يشير إلى أطلال روحه، كانت تحاصره الذكرى كرحيل الأحبة وتحاصره الإخوة كملائكة العذاب رقيب وعتيد.

لم تبق "ببا" في بيتها بل سارت هائمة دون وجهة هي الأخرى، ولم تذهب لبيت والدتها أو أحد أقاربها، تود أن تتوارى عن الجميع حتى من نفسها، هناك شئ ما يشعرها بالعار، فلا تود ذكر ما يحدث لأي أحد، بل تود أن يكون قد مضى على رحيلها ألف عام، يملأها الحزن والخزي والانكسار، وهل تستطيع أن تواجه به أحداً، ماذا تقول وبماذا تشكو؟ ألم فراقه الذي كان أمضى من السكين والذي سعى له هو؟ أم هزيمتها وخزيها من تصرفه تجاهها واتهاماته المخزية؟ وهل من المعقول أن حبهما الذي كان يثير تعجب وإعجاب الجميع ويزيدها سعادة وعزة يصير حفرة جحيم يدفعها هو فيها، وماذا لو سبه أحدهم، هل تطيق أذناها سماع ذلك، وهل لا يزال لديها طاقة أو مفردات لتقص ما حدث، وهل ستكون محايدة في وصفه وماذا تقول عن عيوبه وجسامة خطئه، صرعت المفردات فوق لسانها

الذي ظل مقيداً بها كما لو بتر، ولم تستطع أن تشينه، بدأت تشوه نفسها تذبح كل ما تبقى لها من كبرياء، عقلها لم يستوعب بعد، ولم تعرف ما حدث، تريد سنوات أكثر من سنوات عمرها كله حتى تستطيع أن تقيم ذلك أو تذكر ضعفه وقسوته وظلمه وحبه.

كانت تخشى عودتها للبيت، تستريح على أحد مقاعد الكورنيش ثم تواصل سيرها، فإذا بها تلتقي بالدكتورة حسناء زوجة الأخ خالد ومعها زميلة لها في العمل، تصافحا بالقبلات، أما زميلة حسناء ظلت متنحية بعيداً فقد تتابع حركة شفاههم دون أن تسمع شيئاً طلبت حسناء من "ببا" أن تلبي لهم ما يريدون وتتخلص من تلك المشكلات.

- أعطيهم ما يريدونه "ببا" وانفصلا كما يريدون لأنني أخشي عليك منهم، ما يدبر لك لا تتخيليه، أنت لم تحاربي زوجاً ظلمك بل تحاربين عصابة، وسينصرون أخاهم ظالماً أو مظلوماً، وليس برده عن ظلمه وإنما بإعانته عليه، لأنهم يطبقون كل شيء على هواهم

لم تجد "ببا" ما تقول، خجلة لا تود الخوض في هذا الحديث، بل تحاول أن تواري نفسها وما لصق بها من عار، وأخيراً قالت:

- أعلم حسناء ولا تخشي على

مضت حسناء، وظلت "ببا" هائمة بطريق الكورنيش ذهاباً وإيابا، تتذكر أنه كان لذويها موقف ضده منذ البداية، وعدم رغبتهم في ارتباطها

به ثانية، ربما كان لأسباب لا تزال باقية في الذاكرة منذ سنوات بعيدة تعلمها هي الآن جيداً.

أنهكها المسير، طافت حول بيتها وكأن آلاف الكلاب المسعورة رابضة أمامه، فتلتقي بحارس العمارة أبلغها بأمر الشرطي الذي سأل عنها، فدلفت بيتها مستسلمة لما سيحدث، وبعد وقت عاود الشرطي، قصت عليه ما حدث، سقطت دمعة حاولت منعها كثيراً ، تعاطف معها قائلاً:

- دعك منهم وامكثي في بيتك استريحي شكلك متعب يا مدام لن يتعرض لك أحد الآن، كان يجب أن أصطحبك معي إلى قسم الشرطة، ولكني لم أفعل سأقول لم أجدها في السكن المذكور، وأنت دبري أمرك معه أو وكلي محام ليكون معك منذ البداية.
- لكن قد تتضرر أنت لذلك
- لا.. ليس هناك ضرر من أي شيء
- ولكن ماذا أفعل لو أرسلوا غيرك؟
- لن يأتي غيري، هناك جريمة قتل والدنيا كلها مقلوبة ولن يأتي أحد الليلة.

قبعت وحيدة في بيتها، كصومعة راهب وسط الصحراء، تحاط بفخاخ "عسَّاف" وأشباحه المستنسخة منه والكوابيس. جثم الكابوس الملازم لها كالأنفاس، صار يتربص بها من جديد، تجده في فراشها كالأفعى وخلف الأبواب، كامن بين طيات ملابسها المعلقة، فتصلب هي كالشراع

بحافة شرفتها حتى الصباح، عل نداء يأتي من بعيد يخلصها من قبضته أو حتى ينعق غراب بتلك الشجرة صوب شرفتها لتلوذ بالفكاك، ولكن لم يحدث بل ظلت هكذا مثخنة بالجراح.

الفصل التاسع والعشرون

فاض الكيل بوالد "عسَّاف" خرج عن وقاره وهدوئه وانهال على زوجته بعصاه، فأسرعت إليه بناته المتزوجات في نفس العمارة فطاح ضرباً فيهن أيضا ثم خرج متكئا بعصاه تلك، تملأ عينيه دموع أبية، ونفس جريحة عصية، بدا جلموداً بينما كان داخله صراخ طفل فقد أبويه تواً، يتساءل لم كل هذا العمر وقد تخطى الثمانين حتى أن أول أولاده أحيل إلى المعاش بتمام الستين، فماذا ينتظر إذن وقد صار غير مرغوب فيه، حتى إيمانه وصلاته صارتا لا قيمة لهما، فهو لم يعتنق دين البنا ولم ينضم أو يواكب أي الحركات أو الجماعات الدينية، مكتفياً بصلاته وإيمانه وحسب، وهذا لم يعد كافياً الآن، اعتكف بالمسجد المجاور لهم لا يرغب في العودة، إلا أنه لم يتحمل برودته واليابس من الطعام، يتحامل على نفسه رغم ثقل ذلك، لو كان يجد من تقبله زوجاً بوضعه هذا لما تردد أبداً، ولكن هكذا تُغلق كل الأبواب حتى لا يتبقى لنا اختيار سوى باب الرحيل، فيتدلل الموت ويتعزز علينا هو أيضاً، بينما عندما تقبل علينا الدنيا يقتحمنا ضيف ثقيل يقتنصنا ويفسد كل شيء في حياتنا، فقط هو يأتي ليفرق الأحبة، ويتيم الأطفال، أما نحن الكبار تعاف نفسه منا.

الفصل الثلاثون

نجينا يا رب ، نجينا يا رب.

اختلط أذان العشاء وصرخات المعتوه وآهات نفسها ومرارة حلقها، ثم تزاحمت أبدانهم في حيز غرفة الاستقبال وقد ارتدى جميعاً لباسهم المفضل، جلباباً سعودياً أبيض، مزدحماً بأبدانهم، كبدن غريق في طور التحلل تفوح منه الرائحة المصاحبة، وتتناثر أسفلهم ديدان المقبرة، يضيق الحيز رغم اتساعه، تتضارب وتتصارع البطون المتخمة.

لقد كان عيد البحراوي والشيخ زيدان وشرف جميل المحيا، وآخرون من بينهم ذلك العوفي يخرج من عينيه إشعاع قاتل، يحمل كمية كبيرة من الشر والتواطؤ، دائم المحاولة لإخفائه وإظهار عكسه فيفشل، تطل من عينيه نظرة الخراف والإبل، يلقي تهديده لها ليتلقفه أستاذهم عيد البحراوي بكلمة أقل وطأة أو يؤمن عليه ويظهر تأكيده، صارت أعينهم المشحوذة بالزعاف تحيطها، يتلقفونها بينهم، يقول العوفي:

- نحن لم نقبل بضررك لذلك دعينا ننهي ذلك سريعاً.

صرخ المعتوه "**نجينا يا رب**"

أيقنت "ببا" أنه ليس من حقها المحاربة من أجله، ولا يجب أيضاً محاولة استعادته، فهو الذي طلب الفراق والفرار منها، وإلا كانت حربه من أجلها

هي وليس عليها، فما الذي يجعلها تتعنت هكذا ولم تستجب لطلب الانفصال، وهو يريده، ثم قالت شيئاً آخر غير ما كان يدور بخلدها.

- ولكن نقودي وحليي التي بددها

قالت ذلك رغم أنه كان لا يعنيها ذلك كثيراً. فقال الشيخ زيدان:

- عوض الله عليك

ثم عقب الأستاذ شرف جميل المحيا

- أنت أخذت مبلغاً منه بارك لك الله فيه، وكفى، ولا ضرر ولا ضرار، لابد أن تعلمي تماماً، والله ما جئنا إلا واسطة خير، لقد سمعنا عنك سيدة فاضلة، فدعوى تعدد الأزواج تلك لا تزال في درج المحامي ولم تصل النيابة بعد، وما هي إلا نكاية بك كلنا يعلم ذلك جيداً، حتى يتم الانفصال دون تباطؤ، ولا نريد أن ترديا دون حل لهذه المشكلة

قال عيد البحراوي

- نعلم إن رفع دعوى كهذه كارثة على أي امرأة فما بالك بالفضليات مثلك، ولن أقسم لك بأنها جريمتان إحداهما تزوير والأخرى زنا، أعتقد أنك متفهمة ذلك، وتأكدي أننا لا نريد سوى مصلحتك، أما هو فلا يعنينا في شيء، فماذا تقولين؟ ننتظرك الليلة الساعة التاسعة في مكتب الأستاذ عباس المحامي؟

كان كلامهم سكيناً يمزق قلبها ويدور بها المكان يكسوه الضباب في مقلتيها تبلع ملحه في محاولة للكلام.

- أنا لم أبال بأي تهديد يُحمل في كلامكم ولا أخشاه ولم أخجل من أي شئ وإن كنت آسفة للارتباط بأحد رجالكم والذي امتلأ صدره بفحيحكم. أتخلص من أخيكم إكراماً لكم، ولكن عند محامي آخر ليس عضواً في جماعتكم، وليأتي إلى هناك مسئول التوثيق لإتمام الطلاق

أغضب كلامها عيد البحراوي فثار قائلاً:

- لا يجب أن تتحدثي عنا هكذا ونحن نقف بينكم بالخير، ولم نقدم لك أية إساءة
- وأنا كذلك لم أقدم لكم أي إساءة فقط أقول أريد محامٍ آخر
- أي محام ترغبين؟
- أريد الأستاذ صلاح، فهو تجمعني به جيرة قديمة وأثق به
- غداً في الساعة الثامنة، سنكون في انتظارك بمكتبه

لم يكد ينتهي الحديث إلا وقد اقتحم "عسَّاف" الباب.. عيناه زائغتان عليها، أين تجلس؟ وماذا ترتدي؟ ومن فيهم يطل من عينيه ما يثير ريبته؟ يلتفت جميعهم نحوه في اتجاه الباب، يقطب جبينه أكثر، متضجراً ، فصرخ المعتوه "**نجينا يا رب**"

الفصل الواحد والثلاثون

في الموعد المحدد لدى الأستاذ صلاح المحامي، أبدى "عسَّاف" لها البغض والشر بينما كان يبطن شيئاً آخر، تفضحه كل خلجة فيه، كان عشقه المتأجج لا يخفى على أحد من الموجودين، حبس في مقلتيه دمعاً حارقاً يرقص على حافتها، سأله المحامي بعد أن سمع كلاماً كثيراً من كلا الطرفين

- رددت لها نقودها؟

رد متعالياً يناصبها العداء

- نعم

تلفت حوله نظر للإخوة المصاحبين له وجدهم يراقبون عينيه باهتمام؛ فقال بحدة مصطنعة:

- لقد أعطيتها نقودها، وأرجو أن ننهي هذا الأمر سريعاً

تذمر المحامي قائلاً

- اهدأ يا أستاذ "عسَّاف"، لقد تزوجتما قرابة سبع سنوات حتى الأمس، والآن تقول ننتهي سريعاً، ألا تتمهل احتراماً لمشاعر هذه الزوجة المغدور بها، إنسانياً على الأقل؟

ثم استدار إليها سألها:

- أخذت ما لك عنده يا مدام "بيا"

- لم أخذ شيئاً ولكني أتنازل عن كل شيء
- هذا حقك يا مدام "ببا"، ولا أحبذ أن تتنازلي عنه
- أنا لم أتنازل عن شئ بل مرغمة على التنازل، عندما تنازلت عن فلذة كبدي كنت مرغمة وعندما أتنازل الآن عن زوجي أيضاً مرغمة، بل هو ينتزع سواء بإرادته أو بغيرها، ولا أملك سوى أن أتنازل

غامت عينا "عسَّاف"، ولكنه حاول إظهار الغلظة والاستخفاف مصعراً خده لها، متعالياً فوق كل شعور، وأكمل المحامي بتوجيه كلامه لها:

- إن كنت أرغمت على التنازل في شئ فلا تتنازلي عن كل شئ
- كل شئ هو ما تنازلت عنه بالفعل، تنازلت عن أغلى ما لدي قسراً، ألا أتنازل عن دونهم طوعاً، لا تشغل بالك أنت، أكمل عملك واكتب عندك بأني أتنازل عن كل شئ

خار "عسَّاف"، لم يعد يحتمل أكثر من ذلك، انساب الدمع المتراقص في عينيه، سقط من وقفته، جثا فوق مقعدها احتضن رأسها وقبلها

- إنه قدرنا نلتقي ونفترق، كالحياة والموت

شعر صلاح المحامي بالحيرة وبصعوبة موقفه، وكذلك بعض الحضور، وقد تجمعوا للتفريق بين متحابين وجمع المتنافرين، وتمر دقائق من الصمت قبل أن تقوم "ببا" بتفجير القنبلة قائلة

- أود فقط أن أقول شيئاً ربما لم يعلمه بعضكم وقد يعلمه آخرون، ولكن أقوله فقط حتى من لا يعلم لا يظن بي السوء، قد تعلمون بدعوى تعدد الأزواج التي أراد أن يرفعها ضدي هذا الزوج المؤمن

تذمر بعض الإخوة ولكنها أكملت حديثها

- لم أكن أنا زوجته الثانية

حدق الحضور وقد ظن جميعهم أنه قد يكون له زوجة ثالثة أو رابعة وعندما رأت في أعينهم كل هذا الفضول تبسمت بأسى قائلة

- كنت أنا زوجته الأولى

بُهت جميعهم وأصابتهم الدهشة، ما عدا المحامي الذي كان عليماً بكل شئ بحكم الجيرة القديمة فأكمل "عسَّاف" ما بدأته

- نعم لقد تزوجتها قبل "فريدة" بسنة ونصف تقريباً كان عمر "بابا" وقتها لا يتعدى أربعة عشر عاماً فاستخرجنا لها شهادة ميلاد بستة عشر عاماً حتى نتمكن من عقد قرانها، ولم تكن زوجتي سوى لليلة واحدة حيث أن خبر وفاة شقيقي آنذاك في حادث تصادم، هز العائلة وهدم بيتنا

أخذت أطراف الحديث منه

- فصرت أنا بالنسبة لهم طائر شؤم.

سقطت بعض الأوراق من يد الأستاذ صلاح قائلاً

- لا أزال أذكر تلك الأيام التي ملأ الحزن فيها شارعنا كله لأجلك

- تذكر يا أستاذ صلاح بكاء أمي والتفاف النسوة حولها كأنه عزاء
- وأذكر أيضاً كيف التففنا حول شقيقك أحمد لمنعه من ارتكاب جريمة

تكمل "ببا"

- وعندما رأيت "عسَّاف" بمكتب منتصر كنت أول مرة أره منذ ذلك الحين، ولم أتخيل بأنه قد انضم لجماعته تلك، بل صار قياديا فيها، كل ما أعرفه هو أن شقيقه محمد كان قد انضم إليهم وهو لا يزال في الجامعة وكان أبوه وربما الأسرة كلها ترفض انضمامه، وعندما رأيت "عسَّاف" في مكتب الأستاذ منتصر عضو مجلس الشعب بعد كل تلك السنون بدا لي كما لم أره من قبل، كل ما أعرفه هو أن هناك وثاقاً ما كان يشد كلينا، لم يحيكه بشر ولم يدبره أحدنا

اجتذب أطراف الحديث "عسَّاف"

- نعم..كنت دائماً أدور في فلكها وتدور في مداري، مشدودين بخيطٍ واحد، ويطوف كلانا بالآخر.

علق الأستاذ صلاح متهكماً عليه

- وبعد كل هذا يتم الآن الفراق ثانية؟

تكمل "ببا"

- لقد تزوج هو بعد ذلك وتزوجت أنا ابن عمتي وعندما التقيت به لم يتبادر إلى ذهني أنه هو، ولكن وقعت محبته في قلبي من جديد من اللحظة الأولى، حباً جديداً لا اجتراراً أو تداعيات لحب قديم، وبعد قليل تذكر كلانا الآخر، ففضلنا دون اتفاق أن يكون لقاؤنا هذا هو أول لقاء ومشاعرنا تلك هي باكورة هذا الحب.

تختنق بالبكاء ولكنها تقاومه وتكمل

- وفي عقد قراننا لم نحب أن نقدم لموظف التوثيق وثيقة طلاقي من ابن عمتي وإنما قدمت وثيقة طلاقنا القديمة، وكان يعلم هو ذلك ويحبذه، حيث كنا لا نرغب أن نذكر اسماً آخر في تلك الوثيقة وكذلك لم يذكر أن في ذمته زوجة أخرى حتى لا يضاف اسمها في تلك الوثيقة، لأنها تخصنا نحن أنا وهو فقط، ولا نحب أن يذكر فيها أسماء آخرين كانوا أو لا يزالون غرماء لنا
- وعندما أراد فراقنا دون الدفاع عن حقي فيه، وكذلك ما لي عنده من نقود أخرج لي وثيقة زواج ابن عمتي وهددني بعمل دعوى زنا لتعدد الأزواج، لست أدرى كيف جاء بهذه الفكرة الشيطانية، أعلم أنني سأقدم وثيقة الطلاق الخاصة بتلك الوثيقة والموضوع ينتهي تماماً، ولكنها تجرحني وتقهرني، تكسر كبريائي وتشعرني بالمهانة لمجرد أن أدافع عن نفسي في مثل تلك الدعوى، والأهم من مقدم الاتهام هذا؟ هو من كان أحب وأقرب ما لي

يسأل أحد الإخوة موجها كلامه لـ "عسَّاف"

- وكيف لم تقل شيئاً عن هذا الزواج؟
- الحقيقة كنت أعلم ولم أفكر في استخدام ذلك ضدها في أي يوم إلا بعد تلك الأحداث، لأتفرغ بعد ذلك لصراعي الدائم مع "فريدة" وأحاول أن أدبر أمري

أحدهم يعلق

- لم ينو هو إيذاءها ولا نحن، لقد دبرنا ذلك للضغط عليها فقط وكنا نعلم أنها لن تضار منه

انفعل الأستاذ صلاح

- أنت الذي دبرت ذلك معه؟
- لا والله ما دبرت شيئاً هو من تدبير غيري وهو محام زميلك يا أستاذ
- إنه لم يكن زميلي بل شيطان، زملاؤه أبالسة

علق آخر

- إنها حكاية عجيبة كأنها فيلم وليست حقيقة

انتهي كل شيء في هدوء، وخرج "عسَّاف" مع إخوانه وظلت هي في مكتب الأستاذ صلاح لا تحملها قدماها على المسير والعودة، قدمت لها (سكرتيرته) كوباً من الماء، بينما ظل "عسَّاف" يدور أسفل المكتب يتابعه

من بعيد تنهش قلبه الغيرة وقهر الفراق، وقد ترك إخوانه يمضون دونه كما رفض بأن يبقى معه أحد منهم.

قال لها الأستاذ صلاح في محاولة ليهون عليها:

- كيف تزوجت هذا ال"عسَّاف" يا مدام "ببا" وتلدغي منه مرتين
- أعلم أنها حماقة ولكن لو عاد بي الزمن ربما فعلت مثله، فقط كنت أخذت حرصي أكثر من ذلك، والله لساني عاجز عن وصف حبه، بل أحب نفسي لأجله وأرضى بكل ما مر بي من عذابات لأجله.
- لكنه كان ظالماً لك
- بقدر ظلمه لي كان حبه أيضاً
- أتسامحينه؟
- لن أسامحه أبداً ولن أتبدل نحوه أبداً
- بعد كل ما فعله معك! فهو ليس حباً، بل لعنة، فالأم فقط هي التي تظل محبتها لأولادها تملأ قلبها مهما كان الشقاق ومهما طال الفراق
- ربما أنا أمه وهو أغلى أبنائي
- والله لو كنت مكانه لقتلت نفسي الجاحدة، "عسَّافك هذا ظالم، ولكن لا عليك الآن، يجب ألا تتذكري ألاماً مضت، نحن لا نعلم ماذا تخبئ لنا الأيام، واعلمي أن الظالم لابد وأن يقع في ظلمات

ظلمه، عليك فقط بهذه الآية في صحوك ونومك "إني مغلوب فانتصر" وحاولي أن تعودي لعملك في المنظمة بكل ما فيها من صخب، فكنت متحققة من خلالها، وكنت أنا شخصياً فخورا بك.

شكرته وانصرفت مصطحبة جراحها والهزيمة، اطمأن "عسَّاف" أنها خرجت من مكتب المحامي، سار خلفها دون أن تشعر إلى أن دلفت بيتها، فظل واقفاً أمامه كثيراً، حارساً لها وحريصاً على ألا تعود للحياة، تبقى في حضن بيت ميت مثلها، كلاهما جثمانان يراد إكرامهما عاجلاً، يصير قبراً لها في صمت دون تشييع أو معزين

يملأ قلب "عسَّاف" العشق والحقد والغيرة، كما يملأه الانسحاب والضعف، تكاد عيناه تنفجران لشدة تدفق الدمع بهما، حائراً. أصابت من ضربته؟ ولمن كانت توجه؟ هو ما كان يريد سوى الخروج من المأزق فقط، فكيف تطور الأمر إلى هذا الحد، صار يلدغ كالحية العمياء دون تمييز، لقد رد إليه الآن عقله ولكن ما الفائدة.

"كانت عيني معصوبة لأضع بيدي كل أحبتي تحت عجلات قطار، وأشباحي المستنسخة مني كما قالت، تعد لي رقصة الموت"

خارت "ببا" لم يعد بجسدها المنهك ما يصلبه، فسلمت نفسها لقدمين مبتورين دلفت بهما بيتها لتسقط. تكوم جسدها هشيماً في ذروة ريح، صارت ما بين الغفوة واليقظة ولكن المكان يدور وشئ في الصدر

يغور ويغوص وكذلك الأرض أسفل قدميها انشقت جباً، بدا فما يبتلعها، غرقت داخله، رفعت رأسها قليلاً تتشبث بحافة ذلك الجب، فانهارت حافته حتى باتت في جوفه الملتهم، ربما كانت في حضرة الموت حينها أو هو في حضرتها، ولكن المؤكد لديها أنها كانت في صحبة عوالم أخرى.

تفيق بعد زمن لا تعرفه تحديداً، تعوي الذئبة الكامنة في خلاياها، تلمع في الظلام حدقتاها المحمومتان تنهش بمخالبها البارزة ضلوعها وناصيتها، تنزف نيراناً، تصارعها أشباح في الليل، وتدب نيران الضجر فراشها، كلا الفقيدين يجذبها نحوه يشطرونها نصفين، فقيداً لم تره، سوى خَدْيجاً من أحشائها، وفقيداً أسكنها بيده قبو القبر،كانا كالرقيبين: ذات اليمين وذات الشمال، فقيدين كلاهما حبة القلب. وكلما أوغل الليل أوقد لهيباً في مرقدها، فتحت شرفتها تستغيث بربها من نيران تحلقتها، لف هجيرً من السحر هامتها، رفعت وجهها للسماء، صرخت في وجه النجوم صرخة مكتومة، صرخة الذئبة داخلها.

الفصل الثاني والثلاثون

شحذت كل النصال لتكون في نحر "عسَّاف" حتى أذعن، فلم يسلم من سيف (العدالة) الذي بتره نصفين، عندما اتفق محاميه ومحامي "فريدة" والقاضي على تمزيق أوصاله وعندما أذعن ولبى كانت النصال قد أصابته.

بعد كسر كل ما لديه من كبرياء، عاد إلي "فريدة" فلم يعد سوى بعضه، وبعضه الآخر لدى "بابا" ممزق قلبه، تشققت وجنتاه أخاديداً لمجرى الدمع، ربما كان لأول مرة في حياته يذرف دمعاً كالنزف، بكي انكساره، والفراق، وعذاب نفسه، كان يحج كل ليلة يطوف البحر وسط المدينة يسير وحيداً غريباً شارداً يضم ذراعه التي كانت تطوقها في سيرهما هائمين على الكورنيش، كان لا شئ أهم مما هما فيه.

تثرثر "فريدة" مزهوة بانتصارها عليه وعلى غريمتها، تقص معاناتها الصحية في ولادة جنى وكم كان يؤلمها عدم وجوده جوارها وكم كانت تفتقده. حاول أن يبدي اهتماماً لما تقصه رغم عدم شعوره بقصصها أو بالطفلة التي أعتزي بها، بل ظل شارداً في شئ آخر.. "أفتح الغاز عند خروجي في الصباح أصطحب رفيدة معي للمدرسة، وعندما أعود من عملي يكون كل شيئاً قد انتهى، لا... بل يجب الانتظار حتى يذهب "صهيب" ويجي أيضاً"..

لمسته الطفلة فانتفض واقفاً، وعندما لاحظت "فريدة" ذلك، هم بدخول الحمام. من أين أتت لي بتلك الطفلة وهل هي ابنتي كما تدعي، يجب أن أتأكد من ذلك، "فريدة" لن تقول لي شيئا حتى وإن هددتها بالقتل لن تقوله حتى أمام ربها. سيرتاح الجميع قريباً ولكن ليتني أعرف.

في الصباح أخذ الطفلة كالمجذوب، ذهب إلى معمل تحاليل الدكتور يعقوب يريد عمل تحليل الحامض النووي ليتأكد من صحة شكوكه، كان الدكتور يعقوب أخ أيضاً بجماعته، فنصحه بعدم جدوى ذلك التحليل، حيث أنه سيفسد حياته وحياة أبنائه وتظل الطفلة ابنة الفراش أي ابنته وتحمل اسمه حتى ولو لم تكن كذلك ثم ستصير تبغضه بل ستكون عدوا له في المستقبل، أما بدون التحليل هذا ستظل هي ابنته التي تحمل له إحساس الأب والحب والانتماء..

- فيظل ما عندك هو مجرد شك أو ظن، وإن بعض الظن أثم
- واختلاط الأنساب يا دكتور؟
- إذن أنت متيقن مما تقول ولا داعي للتحليل
- لا... ليس يقيناً، ولكنه شك أقرب لليقين
- كما قلت لك أن بعض الظن آثم
- بعضه إثم والبعض الآخر فطنة
- فطنتك لا تفيد بشيء سوى فضح نفسك وأبنائك، لا تحزن فأنت أكثر حظاً من غيرك، فهناك من لا ينجب ويتمنى أن يعتزى له

بطفل بأي طريقة، أما أنت فقد زاد أهلك ومحبوك شخصاً آخر، ومن يدري ربما يكون هذا الطفل هو الأقرب نفعاً لك والأكثر حنواً عليك وبراً بك، يدعو لك ويتصدق عليك، فيظل هو طاقة رحمة متصلة ببرزخك، فمن منا لديه اليقين أن أباه من حمل اسمه ومن منا على يقين أن هؤلاء أبناؤه أو أحفاده، فليدع الأمور تسير كما هي، ولا يدع شيطانه ينفخ في نار ستأكل كل شئ حوله بداية به وبأولاده وسمعتهم.

أثلج قلبه كلام الدكتور يعقوب، عاد بالطفلة أكثر سكينة وطواعية، كما عاد إلى حياته مع "فريدة" كما كانت عليه من فتور وروتين. ظل يتحين الفرصة التي سيفتح فيها الغاز عليها ليخرج من سجنه. حاول أن يعود لمغامراته النسائية التي اعتادها فهو لم يستطع أن يكون ل"فريدة" وحدها ولا أي امرأة سوى "ببا"، ربما هي الوحيدة التي يقبل ألا يشاركها أحد في قلبه أو حياته، حاول أن يعتبرها كانت حلماً جميلاً في المساء، أيقظته لسعة أشعة شمس النهار منه، إلا أنها ظلت حائلاً بين مغامراته تلك، وظلت نفسه جريحة، مكسور قلبه ولن تجبره نساء العالم أو حتى أولاده النفعيون، حتى صار جميعهم يثير اشمئزازه وضجره، بات يحكي عن "ببا" للإخوة والزملاء وعن مدى حبه لها، وأن الله لم يخلق لها شبيهاً على الأرض، فهو معها كان في الجنة، فقط كانت منحة من الله ليريه الحور.

بدا كالراوي دون الربابة، يقول ويقول في رقتها وجمالها وعذوبتها، ولولا تعديه على الذات الإلهية لقال أنها الكمال والجمال. صار المقربون شغوفين بحديثه، يطلقون عليه مجنون "ببا"، فقط عندما يريدونه أن يروي عنها يقول أحدهم: "أريد الزواج بأخرى"؛ لينطلق لسانه ثناءً ومدحاً، وفي صبابته تلك أتاه خبر وفاة زميله العفي المحتجز بمستشفي التأمين الصحي منذ ثلاث ليال وستخرج الجنازة اليوم بعد صلاة العصر، دارت رأسه كاد أن يسقط، علاقته بالعفي لا تتعدى كونه مرؤوساً تحت قيادته ولكنه كان يمثل الضلع الرابع لرفاق العمر وبرحيله لم يعد سوى ضلعاً واحد، لقد سبق العفي معتزة وهدى وبه يكون قد انهار المبنى بأكمله، يذكر سنة ميلادهم جميعاً، تتقارب وتتباعد قليلاً من سنة ميلاده، ويذكر أول يوم عمل في هذه الشركة، كانوا هم كذلك، جميعهم كان في العشرينات وقتها، يذكر أيضاً أحلامهم بعد المعاش وحربهم في النقابة من خلاله ودعمهم له.

عُلق في لوح الإعلانات والبوابة خبر الوفاة، اصطفت سيارات الشركة أمامها تحمل الزملاء إلى الجنازة، خطب "عسَّاف" مرتجلاً، زلزل الأرض والمشاعر والقلوب، وارتفع الدعاء، ولكن عندما اقترب الجثمان من اللحد، كان "عسَّاف" يرقبه ويدعو، صار الجثمان الملفوف بالأبيض مرآة له هو، يرى صورته في كفن العفي، مسبل الجفنين، يحيط رأسه لثام من نفس كفنه بل بدا له هو الممدد داخله، بينما لا يزال قلبه ينبض من داخل الكفن كقرع طبول، تهز كفه الممدود في الفراغ كالمستغيث، فأدبر محزوناً

الفصل الثالث والثلاثون

وفي لقائهما الأول بعد الانفصال، وفي سيرهما الطويل من محرم بك حتى محل العصير، تناولا الخروب، تجاذبا الحديث، اتفقا على الإفطار سوياً، إلا أنه لم يتناول إفطاره التي أعدته، لشدة الألم الذي انتابه فجأة، بل أسرع بالخروج متلوياً بآلامه، لم تحاول هي أن تصطحبه إلى الطبيب ولا فكرت في ذلك بل سقطت في هوة جحيم بين التصديق والتكذيب، دسته أم لا.

- يموت وتموت معه الحياة؟

تركها خلفه كمن ألقى في مكان سحيق لم تر عيناها ضياءً ولم يحضر عقلها الغائب كالمغشي عليه، تدور حول نفسها مراراً، تذوقت ما كان أمامه من طعام، احتست بعض ما كان في الكأس ثم جلست كالمصروع عيناها مفتوحتان في الفراغ وكفاها مسلوبين، حتى رن هاتفها التقطته بحركة آلية وجدت رقمه المتصل، ردت في لهفة:

- آلو.. ماذا بك حبيبي؟

كانت أول مرة تقولها من بعد تلك الأحداث، هذه الكلمة ملأته فرحاً وأملاً قال

- ماذا قلت؟.. إنك تقولين حبيبي.. أنت أحب إنسان إلى قلبي

هدأت كثيراً بسماع صوته، واطمأنت أنه بخير صارت تستفسر عما حدث

- دعك مما تقول أريد أعرف ماذا حدث
- هذه ليست أول مرة يحدث لي ذلك الألم، لقد حدث مراراً
- كيف مراراً لم أراك متألما هكذا من قبل؟
- منذ طلاقنا وهو يأتيني من وقت لآخر، وبالتحديد كانت أول مرة يوم وفاة العفي كان ذلك بعد ثلاثة أشهر من انفصالنا
- وماذا قال لك الطبيب؟
- سأجرى جراحة عاجلة، خلال هذا الأسبوع ولا تحتمل تأجيلاً حتى لبعد رمضان والعيد
- ولماذا لم تقل لي من قبل
- لأني أعلم أنك ستموتين قهراً، فكفى ما سببته لك
- وكيف أشوفك أو أطمئن عليك؟
- سأتصل بك في الوقت المناسب لأراك، اعتني بنفسك
- اعتني أنت بنفسك
- لا تتخيلي ما سأفعله بعد خروجي من العمليات، سأعيد ترتيب كل شئ بشكل لن يستوعبه أحد
- المهم الآن صحتك، ولا تشغل بالك بغيرها.

الفصل الرابع والثلاثون

لقد سكن الداء الخاصرة التي عشقتها وتمنت لها السلامة، كانت والجبهة الصلعاء أحب ما لديها، لقد أحبت "ببا" فيه ما يذم، قبل أن تعشق ما يمدح بل أجمل ما فيه، كان جبينه البحر، صفحة ماء صافية، يلتقي ألق شعاع الشمس فيها بلؤلؤها، كفاه سفينة وطوق النجاة، عيناه مدينة سناها يملأ الرُبى، قدماه جذور لمد الحياة، فكيف تموت فيه الحياة؟ هو لم يمت ولم تقتله، ولم تحاول قتله بل ظل ذلك مجرد شطحات وخيالات في رأسها وحسب. لقد أشعل فراقه في قلبها سعيرا، زفرت زفرة أسى وغضب فانطلق بها سهماً أصابه، فتمدد كالفرع المجتث كان قبله مختالاً ينطلق لسانه بعذب الحديث، يدور يلف على إحدى قدميه كما لو كان يقدم عرضاً للبالية البارع فيه، تكالبت السهام عليه وتضاربت السموم في جسده، وبقدر العشق كان الزعاف، الذي كان يوماً ترياقاً يشفيه.

تبدل حاله، كأنما انهار فوقه الجبل، يرقد في غرفة مفتوحة النوافذ على مصراعيها، عله يجد نسمة تعيد إليه أنفاسه المطرودة من صدره، معلق بصره خارجها، تقع عيناه على غيمة عابرة لا تحمل له البشرى، يغرق فيها تتلقفه الأفكار. تصله رسالتها المعلقة منذ حين بأنياب الزمن ومتاهات وسائل الاتصال، والمعلقة أيضا بباب شركته ومركباتها منذ وقت ولم يرها،

لتصله الآن وقد بات بصره مطوقاً بالاحتضار، يقرأها له أحد الإخوة المقربين نزولاً على رغبته.

- جاءتنا صوركم العظيمة في زيكم الأبيض الفضفاض وما رأينا إلا وجوها تجبرت متعالية وأعين من أتون الجمر تأكل أخضرها ويابسها وبطون ارتفعت كبطون حيواناتٍ نافقة أسفلها قضيب وخِصاه تدلت.

يدور برأسه المكان يسقط بين طيات فراشه حتى بدا خاوياً، بعد تضاؤل جسده حتى صار عوداً يابساً، تمتد يد الطبيبة برفق تمسك ذراعه لقياس نبضه المنخفض، وتهم بحقنه، قال لها مرافقه:

- كنت أحدثه وفجأة غاب عني هكذا
- سيتحسن حالاً.. لا تقلق.. أنا بالمكتب إن حدث جديد
- أقل دكتورة من؟
- "ببا"

وقعت الثلاث أحرف في أذن "عسَّاف" حياة، أعادته من غيبوبته، فسرى في شريانه نبض من جديد. وعندما أتته محبوبته "ببا" بعدما أبلغها في الهاتف بما آل إليه، وبأنه بعد حبها وبعد بيتها فلم يعد له بيت سوى المستشفى. قال لها مازحاً:

- إن لم تأت لزيارتي كل يوم، فقد وجدت "ببا" غيرك.

أزالت نضح الندى بجبينه

- أنا لم أجد غيرك، ولم يكن بحياتي غيرك، ولم أرد غيرك

فملأ السرور وجهه واتسعت ابتسامته، كله أمل في الشفاء وفي جمعهما من جديد. ظلت على اتصال به وزيارته كلما سنحت الفرصة، تعيد برؤيتها إليه وإليها الحياة، فتتحسن حالته الصحية حتى لاحظ أطباؤه وممرضوه ذلك، كما لاحظه مرافقوه من الإخوة فتركوا له متسعاً ليحدثها وتسري عنه، كان كلما تعافى قليلاً انتظرها في شرفة غرفته بالمستشفى كانتظار طفل لأمه، يحيطها جفناه، لا تغيب عن شفتيه ابتسامة لها أبداً، رغم مرضه الذي غاب به كل شيء، حتى بدا غضوباً، إلا من تلك الابتسامة لها فقط، أبلغها بوصول رسالتها وامتزجت ابتسامته بالندم، لم تعلق على ما قال بل وضعت بعضاً من المرطب فوق وجنتيه الجافتين والتي قد لم ينجل الليل إلا وتكون في ذروة الريح. دون تعليق على الرسالة، يسبل جفناه على لمس راحتها لبشرته.

في كل مرة لم يتركها تمضي دون أن تقطع وعداً بزيارة تالية، إلا هذه المرة لم يتمسك بزيارتها ولم تقطع هي وعداً بالعودة، فانتقل إلى بيت "فريدة" ليسلمها كل ما كان لديه، حتى لم يتبق في عهدته لها أي شئ، وانقطعت كل أخبار "بيا" عنه وكذلك هي، لم تعد تصلها أي أخبار عنه، إلا من مهاتفة منه دون كلام فلم يعد حتى ذلك بمقدوره، فلا يسعه الوقت ليسمعها ولا يتسع صدره الذي ضاق بمرضه ليحدثها، فقط دقيقة أو أكثر قليلاً يسمع تردد أنفاسها ويغلق.

الفصل الأخير

كانت "فريدة" تأتي إليه المستشفى وهي تحمل معها بعض العصائر والملابس النظيفة كالموظف الذي ينهي مهام عمله وحسب، ثم تفرد ضلوعها كضلوع الأفعى، مرتدية من الحزن قناعاً بارداً كتماثيل الشمع، بدت كما لو ترفع لافتة مكتوب عليها ممنوع الاقتراب أو التصوير، بينما هو يصارع ما يصارع ليس مهماً، بل الأهم هو ألا يقترب منه أحد، هي نفسها ربما لم تعرف منذ متى وقد صارت بهذه القسوة، ربما هو الذي حاكها بيده وقسوته، والآن بات دمية في يدها تمنع ما تريد وتسمح لما تريد برؤيته، وعندما علمت أن طبيبته تدعى "ببا" طلبت من إدارة المستشفي تغييرها، وخاضت مشاكل كبيرة مع الإدارة ولم يلبى طلبها، ظلت تطارد كل شيء حوله، أما ما يدور في خياله ليس مهماً، حتى وإن كان عشقاً كبيراً ملأ قلبه حتى نطق لسانه به في سكرات موته ليس مهماً. المهم هو أن يموت هنا وأكون أنا الأرملة، وأنا الوريث الشرعي لعرش الزوجية.

منذ عاد إلى البيت وقد حدت من زيارة أبويه له، ذلك عقاباً لمزاحهما معه بأنهما سيزوجانه بمجرد شفائه، لقد أحكمت قبضتها عليه وزادت تجبراً ، بعد سنوات كثر، طاح خلالها غرب البلاد وشرقها، وأطاح بكبريائها وكرامتها، لم يخطر بباله يوماً كهذا، كيف بمجرد عودته إليها يسقط كالحجر في تلك الهوة السحيقة قد لا يكون فيها نجاة، وكأن الأقدار

قد خطت له ذلك لتنصرها عليه، ترسم بيدها لوحة تأبينه كما كانت تريد، تجلس على عرشه كفها ممدود بتقبل العزاء فيه بعين جامدة وقلب متصلب.

تمر الأيام، يأكله الفراش ويكسر عنقه الوهن، ويصمت بعد ما ملأ المجالس حديثاً وجدلاً مدعماً بالحُجة والبيان، بات لا يسع صدره قول شئ أو سماع شيء.

ظل عدة أيام بين السكرة والسكرة وعندما زالت عنه، سأل عن الأخ سامي الأنوار الذي لم يره منذ كان من مرافقيه حتى أخر يوم بالمستشفى، فهو أحد الإخوة المناوبين على خدمته، فقال أحدهم وقد بدا حزنه وألمه جليا

- زف إلى الجنان، بأسمى آيات العز والافتخار

حدق فيه جزعاً بوهن واستفسار؛ فقال آخر:

- لقد كان شهيد جمعة الغضب يا أستاذ

ترقرقت عيناه وكسا وجهه الألم، فقال أحدهم:

- لا تحزن هكذا يا أستاذ إنه ينعم في الفردوس اللهم ألحقنا بهم شهداء.

أحزنه كثيراً استشهاد سامي الأنوار ولكن كان حزنه على نفسه أشد، عزف عن الطعام أياماً، حاول شقيقه محمد أن يرفع من معنوياته، همس في أذنه وقد امتلأ صوته بالحماس والإصرار

- لقد تنحى مبارك يا "عسَّاف" ألم أقل لك أن دولتنا قادمة، وها هي ذي، سأقول لك ثانية أريد لك مكان الشمس فيها.

حدق فيه "عسَّاف" ثم سقط جفنه مبصراً ذاته، فبدا له أن لحافتي جرحه الغائر جفن مقفل، بداخلهما حدقة ذابلة متعبة كحدقة غريق تنعكس بها صورة لألف كفٍ تستغيث. رفع بصره إليه، ألقى نظرة مودعة مستسلماً وبصوت مهزوم بدا همساً:

- ولكن نهاري أفل وشمسي غربت.

...

"لن يكون فراقاً إلا بالموت".. هكذا قال لـ "ببا" يوماً، لم يحنث بوعده هذه المرة، الآن فقط ودت لو كان يحنث، بعد أن أدركت مدى كل هذا الثقل دونه.. كل هذا الضباب.. كل تلك العزلة والغربة، لكم كان هو ثقيلا أن تبقى وحيدة حتى من ضغينته، تحمل رأسها خذلانه وتخاذله وهشاشة منطقه، يحمل صدرها عشقه وغرامه، تحمل جوارحها أيامه، تشرد فيها، تحمل جثماناً في عداد الإحياء في سيارتها المتجهة نحو شرق المدينة، تعيق الطريق أمامها سيارة عليها لافته تحت الطلب، تتجه غرب المدينة تحمل جثماناً في عداد الراحلين، ويمضي الجثمانان دون لقاء ودون وداع، يطغى وجوده على الغياب، ويملأ جبينه البحر

تمت